عبد الناصر والسادات :

أوردنا فيما سبق ما هو منسوب لنجيب محفوظ وأنيس منصور بشـــأن هذيـــن الحاكمين، كلتا المقولتين لها قيمتها، وإن تكن غير مكتملة المنطق والمضمون .

لكى نتحدث عن النصر والهزيمة ويكون لكلامنا قيمة ومغزى ، لابد لنا أن نحدد على من كان الانتصار وأمام من كانت الهزيمة ، وأن تكون رؤيتنا واضحة ، فلا نقول مثلاً أننا خرجنا سنة ١٩٦٧ منتصرين لأن هدف إسرائيل ــ وهو إسقاط الثورة ــ لم يتحقق ! مع أن كلاً منا يعرف فى قرارة نفسه أن الإسرائيليين لم يستفيدوا من شىء بقدر ما انتفعوا بما نسميه نحن الثورة ، ولو أنهم أرادوا إســقاط عــبد الناصر لفعلوا بسهولة فى تلك الأيام ، ولأقاموا له تمــثالاً فــى تل أبيب كما يقول الأستاذ الحكيم . المصريون الذين أحسوا بالانتصار فى تلك المناسبة هم الذين رقصوا عندما تأكدوا أن مرتباتهم مستمرة .

ويلحــق بذلــك أيضــاً نصر ١٩٥٦ الذى تحقق عندما أعلنت القوتان العظميان فى ذلك الوقت أنه "لا ثالث لهما"، وسقط أنتونى ايدن لا لأنه "خرع" بل لأنه ــ هو أيضاً ــ لم يدرك أحوال العالم جيداً ، وبالتأكيد فإن إيدن لم يكن ــ بحكم ماضيه ــ اختياراً موفقاً لــزعامة حــزب المحافظيــن ــ ومــن ناحية كسب عبد الناصر للصراع فنحن طبعاً نعرف ماذا كان مصير القناة وماذا كان يكون لــو لــم "يرحل عن دنيانا". حياة عبد الناصر كانت كلها فشلاً فى فشل، سوريا، اليمن، العرب، حيثما ذهب لم يحقق شيئاً، والأسهل أن نعد انتصاراته، هناك معركة عسكرية واحدة انتصر فيها وهى معــركة كمشــيش . فينا نقص فظيع عندما نفكر فى هذه الأمور، مضمونه أننا لا نحاول أبداً أن نتصور رؤية العالم لنا ونحن ننقض بالدبابــات على أسرة من الفلاحين بنسائها وأطفالها، وكما نشرت

الصحف، ومنها الأخبار، بعد "الرحيل" طبعاً، الكثيرون رأوا فيها ما لا تقارن به دنشواى التى فضحنا بها الإنجليز . لا أحد يعرف حقيقة الموضوع حتى الآن ، قال أيه عضو فى الاتحاد الاشتراكى قتلوه . نأتى بالكلاب تهاجم الرجال والنساء، ونلبس الرجال ملابس النساء ولجم الخيل .. ما الذى يدل عليه هذا سوى البهيمية والخيبة؟ ثم .. لجنة تصفية الإقطاع ، فرقة من الحشاشين والقتلة وخبراء التعذيب واللصوص .. نعم، عبد الناصر مات منتصراً فى التليفزيون فقط، والآن إلى السادات.

كما نعرف كانت سياسة مصر ــ واقتصادها وصناعتها ــ تقوم على الشعارات بصفة أساسية، وفى عيد العمال سنة ١٩٧١ وقف السادات يحذر "اللى بيخدعوا الشعب بالشعارات"، وما لبث أن بطش بهم بشكل يدل على مدى خيبة هؤلاء الذين كان الشعب ــ ومازال للآن ــ يرتعش منهم خوفاً ! إذا أردت مقارنة بين هذين، خذ هذه : "دولة تصون ولا تهدد، تحمى ولا تبدد، نصادق من يصادقنا، نعادى من يعادينا"، الركاكة وحدها تكفى، هذا السجع الردئ والمضمون السفيه ، فقط تأمل هذا المبدأ الذى يصلح تعبيرا عن السلبية : نصادق من يصادقنا، نعادى من يعادينا ؟! معنى هذا أننا لا إرادة لنا فى الأمر، نحن نجلس هكذا كالبلهاء، إذا غازلونا استجبنا لهم، وإذا هجرونا بادلناهم الشعور ! طبعاً، فنحن لا نعرف شيئاً عن العالم، سواء الأصدقاء أو الأعداء، ألا يذكرك هذا بـ "إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلاً وسهلاً "؟ أنا أقعد كالتيتل وهم الذين يقررون ما يريدونه وما نفعله نحن نتيجة لذلك . قارن هذا بقرار السادات أن يبدأ بالهجوم الجوى على قوات تملك ثالث أقوى سلاح طيران فى العالم ، قارن هذا بقرار الاقتحام الذى أعطى إسرائيل علقة لم يسبق لها مثيل ..، ونحن نحارب بأسلحة عتيقة رديئة، قارن هذا بقرار إخراج السوفيت من مصر قبل ذلك بسنة واحدة، وللذين يهرفون بأن عبد الناصر كان ينوى الحرب، والروس

موجودون يا ترى؟ هم أيضاً لا يحاربون إلا فى لتوانيا وأذربيجان، هـم أيضـاً قعدوا كالبلهاء إلى أن محقهم النازيون، وكان طردهم أساسـياً لشـن الحـرب ضد إسرائيل، وقبلها بسنة واحدة، حدثت المواجهة مع العصابة التى أسموها "مراكز القوى" ــ إذا أردت أن تـتأكد أن المصـريين يفهمـون جيداً، خذ هذه النكت التى كانوا يحكونها: "أنا حامشى على خط عبد الناصر..بالأستيكة !" ــ سائق السادات يقول له : الريس عبد الناصر كنا لما نيجى هنا يقول لف شمال، "طيب، سوق يا ابني، إدى إشارة شمال، ولف يمين " .

لماذا ؟ لماذا ألبس السادات نفسه عباءة عبد الناصر وحمل نفسه مسؤوليتها مع أنه لم يكن يشارك فى السلطة بشكل يجعله مسؤولاً عما وقع ؟ بل إنه بمجرد أن تولى السلطة ، قال بوضوح "أنا مش حـاكون ماركسـي" ــ هكـذا بوضوح ؟ لماذا لم يقف كما وقف خروشوف ويفضح تلك "الحقبة السوداء فى تاريخ مصر" كما ورد فى حيثيات إحدى قضايا التعذيب ؟ بل إن الأمر وصل بنا إلى أن عـدداً مـن كتابنا ومفكرينا تقدموا إليه قبل حرب أكتوبر ببضعة شـهور بالعريظة المشهورة ، والتى يشكون فيها من ضياع البلد وحالة أجيال الشباب من حيث الإحتلال .. الخ ؟ السؤال الذى هو أكثر جدارة هو: ما الذى كان يحدث لو أن هذه العريظة قدمت إلى الحـاكم الـذى وقع كل هذا فى عصره، يا ترى ؟ مذبحة الكتاب والصحفيين ؟ الواقع أن الوليمة عندما انتهت ، كان دور السادات هـو أن يدفع الفاتورة ! مع أنه الوحيد الذى لم يحضر المأدبة أو على الأقل لا ذنب له فى ذبح الجاموسة .

بل إنه ذاق الأمرين من جميع الفئات والطوائف . كل الطوائف كانـت مهضومة الحقوق منعدمة القدرة مكتومة الأنفاس، الأقباط مـثلاً، لم تكن تحس بوجودهم أيام عبد الناصر، لا فى الجيش ولا فـى الحكومـة ، العسكريون منهم لا يصلون إلى الرتب الكبيرة وحـتى من يتعاطون الحشيش (إن وجدوا ، كانوا قليلين) لم يكن

مـــنهم أحـــد فى شلة النائب الأول ، السادات ، ولأول مرة ، عين واحـــداً مـــنهم قائداً للجيش الثانى . وكانت قد سرت إشاعة قذرة منحطة تزعم أنهم تعاونوا مع الإسرائيليين فى عملية الثغرة ، إلا أن هـــذا لم يشفع له ، فقد جاء بعد عصر العبودية ليبشر بالحرية والانفتاح والديموقراطية . ألست تقول الحرية ؟! حسناً ، أنا أيضاً أريد الحرية ! الحرية يعنى للجميع ! وهكذا قامت قيامة الجميع من ماركسيين وإسلاميين ، ولو كان فى البلد دروز لقامت قيامتهم هم أيضـــاً. وقد أدى هذا إلى شعور إخواننا الأقباط بأن لديهم شكوى أيضاً. وطبعاً ، من العبث أن نشكو من رحلوا، ولعل من أسوأ ما رأيناه فى عصر السادات تلك الأزمة التى حدثت مع البابا شنودة ، صـــحيح أن السادات حاول كثيراً إصلاح الموقف، أنا أعترف له بذلـــك، إلا أنـــه كان يجب أن يتحاشى الإساءة إلى رجل فى هذا الموقـــع، مهما كان الذى سيتحمله نظير ذلك. وبالتأكيد، لم يكن ما فعله معه ضرورياً على وجه الإطلاق.

إلا أن هـــذا كلـــه هو ما يأتى ـــ فى رأيى المتواضع ـــ تحت عنوان التحول من الشمولية إلى الوضع الطبيعى لحياة البشر، وهو مـــا أحـــب أن أســـميه "أن تلـــزم السلطة حدودها" ـــ وأن تعرف الحكومـــة أن عملهـــا هـــو إقـــرار النظام العام وليس أن يمسك البيروقراطـــيون بالرغـــيف ويوزعون اللقمة على الذين دفعوا هم ثمـــن هذا الرغيف .. "سيندروم الخصخصة" هذا، وهو محتوم أن يحدث .

"كنا عبيد وبقينا أحرار" :

هكذا تقول الأغنية الشهيرة "ع الدوار" . إنصافاً للحقيقة فإن هذه الأغنـــية ظهرت فى أعقاب الحركة المباركة مباشرة، وإن كنا ما نـــزال نرتكب جريمة إذاعتها فى أعياد الثورة المجيدة. والجريمة هـــنا لا تتمثل فى مجرد خديعة الأجيال بهذا الكلام السفيه، بل فى

الإسفاف فى النغم والركاكة فى اللفظ، إفساد أذواق الناس بالهبوط، وتعويدهم على الطبل والزمر بالسماجة التى ألفناها ، وغرس فكرة أنـــه لا حـــياة لشعب بدون فلان الفلانى، هو فرض أسوأ نوع من العبودية عليهم . قد يكون فى التاريخ حكام "عظماء" ، إلا أن هذا فى رأيى المتواضع أمر نادر الحدوث ، وأنا فى الحقيقة لست أرى فى أمثال حامورابى و بختنصر وتحتمس الثالث ويوليوس قيصر ونابليون ، لست أرى فيهم سوى قتلة متوحشين ، وأظن أن القارئ ســيوافقنى لـــو أنه تخيل نفسه مكان رب أسرة فى المناطق التى اجتاحـــتها جـــيوش هؤلاء ، لو أنه تصورهم وهم يقطعون رقبته ويغتصـــبون امرأته وبناته ويبيعون أبناءه فى أسواق العبيد ، كان هذا يحدث، بل ومضى يحدث لغاية الحرب العالمية الثانية ، على أيـــدى النازى وحلفائهم اليابانيين ، وكان يعتبر أمراً شرعياً تماماً وقانونـــياً تمامـــاً . حتى نابليون الذى يريد أن يغزو العالم بدعوى نشـــر مـــبادئ الحـــرية والإخاء والمساواة أعدم آلافاً من الأسرى الأتراك ، ثم تركهم يمسكون به ويحبسونه كالفأر ، طب انتحر زى هتلر أو .. "عبد الحكيم" . كل هؤلاء يموتون ، ويبقى وجه ربك . كلهـــم ماتوا ، ماوتسى تونج كان أقرب شىء إلى الحاكم "الإله" ــ والعياذ بالله ــ فى العصر الحديث . مات ! وكذلك عبد الناصر ، وأنا أميل تماماً إلى تصديق نظرية أنه مات بنفس السم الذى قتل به كثـــيراً مـــن أعدائه وأعوانه ، وهذا كان موضوع كتابات كثيرة . كـــان الغرض هو إزاحة هذا المتسلط الذى يظن أن الشيوعية هى أداة فـــى يده بينما أنبياؤها يرون العكس . وكان على صبرى ــ بـــتاع السجاجيد ــ هو الخليفة المنتظر ، فتأمل أى قدر من الأذى أزاحه السادات عنا . هو طبعاً لم ينقذنا ، لست أقول هذا إطلاقاً ــ فلا يقدر على إنقاذنا إلا سبحانه وتعالى، إذا شاء !

إن القـــول بأن شعباً لا حياة له إلا بقائد معين ، حتى ولو كان يســـتحق هـــذه التسمية ــ والحالة التى نحن بصددها ليست كذلك

إطلاقـاً ــ هـذا القول هو أقسى إهانة توجه لهذا الشعب . إذ إنه كيف تكون حياة الشعب ــ وهى تمتد آلاف السنين ــ رهينة بحياة بشـر لا تمـتد عادة إلى قرن واحد فقط ، وكما رأينا فإن زعيمنا الـبطل لم يستطع حتى أن يعيش إلا نصف قرن فقط ؟ ثم "رحل عن دنيانا" ؟؟ ومازلنا على أى حال نعيش، وسوف نظل نعيش إذا تمكـنا من إزالة آثار العدوان ، ليس عدوان إسرائيل، فهذا أزلناه، عدواننا على أنفسنا هو المطلوب إزالته.

تأليه الحكام كان دائماً طريقاً إلى عبودية البشر، بدأ هذا النوع مـن العـبودية يتلاشى مع تقدم المعرفة وبداية عصور التنوير، وظهور الحاجة إلى إشراك الشعوب فى إدارة شؤونها.

ما هى العبودية ؟ أو بلاش "هى" عشان ما يزعلوش مننا بتوع النحو، ما العبودية ؟

العـبودية هـى إمتلاك فرد ــ أو أسرة ــ لفرد آخر، وبالتالى لأسـرته . وكما هو معروف ، فإن المهاجرين إلى الدنيا الجديدة، كـانوا يمـتلكون العبـيد المستوردين من إفريقيا ، فى واحدة من أحداث التاريخ البشرى التى تشكل وصمة قبيحة على وجه إنسان هـذا الكوكـب ، ويتمثل امتلاك الأسرة لأسرة أخرى ، فى أنهم يـرثون العبيد كما يرثون الأرض ، وعندما تلد امرأة سوداء، فإن وليدها يصبح أيضاً عبداً مملوكاً لمن يملكها هى ، سواء أنجبته من زوج أسود مملوك ، أو من السيد الأبيض الذى يملكها . ومعروف أن هؤلاء "السادة" كانوا يمارسون الإنجاب من هؤلاء النسوة ، لكى .. يبـيعوا هذا الإنتاج الزراعى كما يبيعون الإنتاج من الماشية ، بشكل يذكرنا بقصة يوسف الشارونى "الرجل والمزرعة" ، حقاً ، لمـاذا لا تعامل المرأة معاملة المزرعة ، تغرس فيها البذور ويلى ذلك تسويق الإنتاج ؟ نحن نعرف أنه بعد إلغاء الرق ، مازال هذا يحدث طواعية ، بسبب الفقر .

إلا أنه علينا أن نذكر أن المهاجرين الأوربيين إلى أمريكا ليسوا

هـم الذين اخترعوا الرق ، كان موجوداً قبلهم بآلاف السنين، وإن كـان لا بـأس طـبعاً بأن نقول أن الأمريكان هم الذين ابتلوا به البشرية إن كان يلذ لنا ذلك . الواقع أنهم خاضوا حرباً أهلية أغلبنا لا يعـرف عـنها إلا أن حب سكارليت أوهارا لآشلى "ذهب مع الـريح" ، هـذه الحرب المأسوية الفظيعة استمرت خمس سنوات وراح ضـحيتها مـئات الألـوف من الأمريكيين، كان سببها أن الولايات الشمالية رأت تحريم الرق، أسوة ببقية أنحاء العالم ومنها كـندا إلى شمالها والمكسيك إلى جنوبها، ولكن الولايات الجنوبية الـتى كانـت تعيش على زراعة القطن فى زمن لم تكن تشيع فيه الطاقة الآلية، رفضت ذلك وأعلنت الانفصال عن الاتحاد مما كان مخالفاً لميثاقه ، فقامت الحرب ، ولكن العبودية ترجع إلى مجـئ الزراعة بعد عصور التجوال وممارسة الصيد وجنى الثمار .

نذكـر هـذا كله لا لعلاقته المباشرة بما نحن فيه ، وإنما لندلل علـى العلاقـة الوثـيقة بين النشاط الاقتصادى من جهة ، والقيم الإنسانية من جهة أخرى .

كـان الـناس يفرضون العبودية على المستضعفين من البشر لدوافـع اقتصادية فى المقام الأول ، وإن تكن لهم فى ذلك مآرب أخرى كحريم السلطان وغير ذلك .

كـان مجئ الطاقة الآلية سبيلاً إلى نبذ هذا كله ، وبرغم ثورة العبيد بقيادة الزعيم سبارتاكوس ، والتى جاءت قبل ميلاد المسيح بسـبعين سـنة ، فإن التحريم الكامل للرق جاء فى أواخر القرن التاسـع عشر ، سبقت ذلك خطوات وتطورات كثيرة طبعاً. ولكنه استمر بأشكال متعددة ، مازالت تتمثل حتى يومنا هذا .

الديموقراطـية هى أيضاً فكرة قديمة ولكنها تبلورت أيضاً فى ذلـك الوقـت ، ومن مفارقات القدر أن يكون ظهور كتاب كارل ماركس "رأس المال" مصاحباً لتعميم حقوق الانتخاب فى بلاد مثل انجلترا وألمانيا (على يدى بسمارك) ــ كلاهما كان يعد سبيلاً إلى

الحرية ، ماركس ـ بنظرة اقتصادية بحته ، تكاد تتجاهل كل شيء آخر ـ يرى الشر كله فى الرأسمالية ولا يرى سبيلاً إلى تهذيبها ، وعلى الجانب الآخر نرى بين الرأسماليين ـ ومن هؤلاء مثلاً هنرى فورد الذى أنشأ صناعة الإنتاج الكثيف وأعلن أنه سيجعل من عمال مصانعه ملاكاً للسيارات ، ونجح ـ نرى من بينهم من يؤمن بأن الحرية تتمثل فى رغد الحياة ، وبأن الحرية سياسية بقدر ما هى اقتصادية ، وأنه يمكن بكل تأكيد إصلاح قوانين العمل بما يمكن من الحد من شرور الرأسمالية مع الاستفادة بثمارها التى تأتى من إطلاق طاقات الإبداع الخلاق ، وكما نرى فى عصرنا هذا فإن علوم الإدارة قد تطورت إلى حد أن صنع القرار أصبح يأتى بالمشاركة الديموقراطية ، لا على مستوى الدولة فحسب ، بل فى المؤسسة الاقتصادية أيضاً ، وقد أصبحت الإدارة والقيادة كل منهما علماً له نظرياته وقواعده. أنا شخصياً وقد انتميت لصنعة الإدارة وتنمية المورد البشرى أربعين عاماً ، لست من هواة إخضاع سلوك البشر لقواعد العلم التجريبى ولكنى ما أزال أؤمن بأن الملاحظة واستنباط القواعد هى السبيل الوحيد إلى المعرفة ، والمعرفة هى السبيل الوحيد إلى القوة .

كان التطبيق الأول للنظرية الماركسية فى الاتحاد السوفيتى كما معروف. لست أرانى مضطراً لأن أكتب عن الفظائع ، فالدنيا مليئة بمؤلفات ألكسندر سولزنتسين وأندريه ساخاروف وغيرهما من قائمة طويلة من الذين عاشوا تلك التجربة التى سأصفها بأنها غير آدمية ، وسأكتفى بأن أذكر أن لينين ـ الذى يشهد له فيلسوف مثل برتراند راسل بأنه لم يكن مجرد طامع فى السلطة بل زعيماً يؤمن فعلاً بما يدعو إليه ، والذى آمن به رسل نفسه فى شبابه ثم زار الاتحاد السوفيتى وقابل لينين وأصيب بخيبة أمل بقيت معه نصف قرن لغاية وفاته ـ لينين كان يوقع قوائم الإعدام على بياض ويعطيها لتروتسكى ليضع الأسماء ، وبعد موته ، لقى

تروتسكى نفس المصير على يدى ستالين الذى أرسل فرقاً تلاحق أولاده وتقتلهم ثم تقتله هو فى مقر إقامته فى المكسيك ، واتخذ ستالين لنفسه جلاداً هو لافرنتى بيريا، وبعد موته انقض مالينكوف وبولجانين وخروشوف على هذا الأخير وقصموا رقبته فى اجتماع المكتب السياسى للحزب ، وهكذا ..

كل شعب يكون شعباً من العبيد عندما تكون رقبة الإنسان مصيرها فى يد الحاكم، ومعها رزقه أو لقمته طبعاً. بائع الفجل كان حراً فى حياته فى بلادنا وفيما يعمله من أجل رزقه ولقمة أولاده، لا يمكنك أن تتعرض له بالإيذاء أو أن يصل هذا إلى حد تعذيبه وقتله، مساعد نيابة تخرج أمس من الجامعة يمكنه أن يحرك الدعوى الجنائية ضد من يرتكب جريمة كهذه ، كنا إذ ذاك عبيداً وأصبحنا أحراراً عندما أصبح وكلاء الوزارة والدبلوماسيون يضربون بالشلاليت ويحبسون فى الأقبية، عندما أصبحت رقابنا تقطع لمجرد الاحتجاج على خراب البلد واحتلالها بواسطة "عصابات الهمج الصهاينة"، بأحكام إعدام تصدر فى مقر القيادة الذى كان مرسى لسفن الملك الفاسد الذى انصلحت أحوالنا عندما تخلصنا منه، كنا عبيداً عندما كان رجال القانون عندنا من نوع السنهورى ــ الذى ضرب فى قلعة القانون بأيدى رعاع يقودهم رعاع، ووحيد رأفت، وقضاة يقدمون على الانتحار عندما يرغمون على مخالفة ضمائرهم، وأصبحنا أحراراً عندما لم يعد هناك داع لذلك، عندما أصبحت محاكمنا يرأسها أمثال جمال سالم والدجوى، كنا عبيداً عندما كان عندنا أطباء مثل أنور المفتى، الذى صدر حكم بإعدامه أيضاً، كنا عبيداً عندما كان لدينا أدباء يعيشون من دخل مؤلفاتهم، حياة متواضعة طابعها التقشف، بلا شك، مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم، فهذه هى الحياة التى يريدونها، حياة "راهب الفكر"، وأصبحنا أحراراً عندما أصبح كتابنا يخاطبون لجان وزارة الثقافة ومجالسها ، هذا إن كان هؤلاء يقرءون ما يقدم

إلـيهم، وليس الجمهور، فليس هناك جمهور، فالعبيد ــ سواء فى الدنـيا الجديدة أو القديمة، لا يقرءون .. إنهم مشغولون بلقمة تلقى إليهم، فقد رأوا الوزراء يقال لهم: أنا ماعنديش حد يستقيل، لماذا؟ لماذا لا يحق للوزير أن يستقيل ؟ لأنه ليس حراً، إنه عبد مملوك. "أنـا أطرده معلش !" ــ وعندما طرد الوزير ممتاز نصار، خرج من مكتبه ووراءه "قانون" يمنعه من كسب لقمته خمس سنوات!

هذه هى الحرية التى نلناها بعد العبودية .

لعنة الله عليها وعلى من جاء بها إلى يوم يبعثون ..

أوجاع الخصخصة :

قـرأت محادثة فى مجلة عالمية ، مع جنرال ألمانى كان رئيساً للأركان فى ألمانيا الغربية ، عند توحيد شطرى ألمانيا . وكان مما قالـه أن مشـكلة توحـيد القـوات المسلحة ليست فى التسليح أو التدريـب، كـل هذا مقدور عليه ، إنها تتمثل فى أن إنسان ألمانيا الشرقية ليس هو إنسان ألمانيا الغربية ، إنه فصيلة مختلفة .

للقـارئ أن يمسـك بخريطة العالم ويتأمل دول أوربا الشرقية وأحوالها قبل وبعد اندحار الشمولية . إلا أن هذه الدول سوف تجد من يمد يده إليها لينتشلها من أوحال الحكم الشمولى ، فهى ما تزال أعضاء فى النادى الغربى وأجزاء من التراث اليهو مسيحى الذى بدأ يسود العالم منذ أربعة قرون ومازال يسوده بفعل تقدم المعرفة ووسائل القوة ونوعية الحياة . إلا أن الأمر يختلف تماماً فى دول العـالم الثالث كما يسمى ، وكما نعرف فإن العالم الأول يضم كندا والولايـات المـتحدة واسـتراليا ونيوزيلندا واليابان ودول أوربا الغربـية وإسـرائيل (أنـا لا ذنب لى فى هذا ، فالتقسيم له قواعد ومقايـيس فى مستوى المعيشة والأجور والتعليم والنظام السياسى والإدارى..إلـخ ، سـتجد أن جمـيع المـراجع العالمية تتبع هذه

المقاييس) أما العالم الثانى فهو ــ أو كان ــ الاتحاد السوفيتى وتوابعه الأوربية ، بقية العالم هو العالم الثالث، وهذا أصبح الآن ينقسم إلى خمس فئات ، إذ إنه لا يمكن أن نساوى بين الأرجنتين و رواندا مثلاً . مصر الآن تصنف على أنها من الفئة الثانية ، بس من تحت .. يعنى ليس دوننا ــ بحكم المقاييس التى ذكرناها ــ سوى البلدان المصدرة للخامات فقط . وسوف تجد أن هذه الفئة الثانية تضم جميع دول العالم الثالث التى ألبسها دكتاتور أو آخر عباءة الشمولية . التطبيق الشيوعى فى دول العالم الثالث يأتى مصحوباً بالتخلف الأصلى ، الفقر والجهل والمرض ــ هذا الثالوث التاريخى ــ تتكون منها نقطة البداية ، إنها ليست النتيجة النهائية ، الفرق هنا يشبه ما تجده فى حالة اثنين أدمن كل منهما الحشيش والخمر مثلاً ، أحدهما كان شاباً صحيح البنية ، والثانى عجوز معتل ، بدلاً من أن "يمشى جنب الحيط" ، فعل بنفسه هذا .

أصبح واضحاً تماماً أن الشمولية تنطوى على تطبيق لدرجة مما يسمى "التماسك الاجتماعى "social cohesion " يفوق بكثير ما هو مطلوب لتحقيق الأمن ، فردياً كان أم جماعياً ، وعلى انتفاء لكيان الفرد يقتل الموهبة ويدمر الشخصية وتنتفى معه الآدمية تماماً . ولكنه مريح جداً للحاكم الذى يريد أن يرث الأرض ومن عليها وما عليها . إما الشيوعية وإما الشيعة أو شىء مماثل لها ، وقد رأينا واحداً من حكام دولة عربية إفريقية يمارس الأولى ولما أوشك أن يسقط لتآمر أعوانه عليه ، انتقل إلى الثانية . الفكرة واحدة، تكوين فرق من الفتوات تثير الذعر فى النفوس وتقتسم الغنيمة. هناك ثلاث كوارث، إذا أصابت واحدة منها ــ أو أكثر طبعاً ــ مجتمعاً أو آخر، فإنه يصبح مثل المريض بالإيدز، لا يمكن علاجه إلا بالموت، ويا ويل من سيدفنونه، هذه الكوارث هى: تدخل الجيش فى السياسة أو خروجه بأى درجة عن واجبه فى الدفاع وخدمات الطوارئ، ثم: استيلاء الدولة على النشاط

الاقتصـــادى أو ســـيطرتها عليه، ثم : استخدام الدين فى ممارسة السياســـة وإدارة الحكم . آلاف الأمثلة من التاريخ القديم والحديث لـــك أن تنفق سنوات فى دراستها إذا شئت . النظرية ليست جديدة على الإطلاق .

مجـــتمعات كثيرة بدأت تحاول التخلص من نتائج هذه المصيبة الكـــبرى: الشـــمولية. مـــنها مصر كما نعرف: الجهود التى تبذل صـــادقة، ولكن المشكلة ليست سهلة، إنها تشبه تماماً حالة المدمن الذى يريد أن يكف عما جلبه لنفسه. ولكنه سرعان ما يكتشف أن :

أولاً : الانقطاع عن الصنف لن يؤدى إلى شفائه من الأضرار التى نجمت عنه، خلايا مخه التى تلفت لن تعود إلى الحياة لمجرد أنـــه "بطّل الشئ"، سيظل يعانى من دمار جهازه العصبى. أو إذا كنـــت تفضل التشبيه بمريض الإيدز، فإن هذا الأخير لن يتخلص مـــن الفـــيروس اللعين بمجرد الإقلاع عما كان هو الطريق الذى جاءه منه أصلاً .

ثانـــياً : بدايـــة العلاج تصيبه بتقلصات فظيعة تجعله يحن إلى الصنف، ويأتى عليه أوقات يحس فيها بأنه جلب لنفسه مصيبة بأن لجـــأ إلى الطب النفسانى، وأنه كان أحسن حالاً وأهدأ بالاً قبل أن يفعل هذا بنفسه، ليس هناك أى إشباع لحاجاته الملحة ..

حالة مصر تشبه حالة قطار توقف فى المحطة. قطار به بعض الأعطـــال والمشكلات الآلية ولكنه يسير بشكل لا بأس به. توقف فـــى المحطـــة وبينما السائق يتناول رشفة من كوب الشاى، دخل واحد من الركاب وقذف به من باب القاطرة وحل مكانه. لم يعرف مـــاذا يفعـــل بهـــذه الأذرع المحيطة به فبدأ يجربها. بقية العمال افترضـــوا أنه لابد لديه دراية بما يريد عمله، فتركوه أول الأمر، وإذا بالقطار يندفع بسرعة مخيفة ومتزايدة، حاولوا مقاومته فاتضح أنه ليس وحيداً فى عملية الاختطاف هذه فمعه جيش من الفتوات، صيحات المصابين من جراء مقاومة بقية أفراد العصابة امتزجت

بصـــيحات ركاب الدرجة الأولى وعربة الطعام وعربة مخصصة للسائحين. خرج القطار عن القضبان ولكنه مضى يزيد من سرعته ظـــناً مـــنه أن القطـــار مزود بعجلات من المطاط، انقلب القطار وتبعثرت العربات هنا وهناك، مات من الركاب نحو ربع مليون، وجـــرح كثيرون، سرعان ما تكاثرت الطيور الجوارح إلى حد أن الدنـــيا أظلمـــت من كثرتهم، وعندما هبط المساء جاء الضباع من أعماق الصحراء ينهشون الأحياء والأموات، فالجيفة ملأت أنحـــاء المنطقة.

تخـــيل نفسك رئيساً للجنة مهمتها إنقاذ الموقف ورفع العربات تمهيداً لنقلها إلى ورش السكة الحديد، وأيضاً إسعاف من تبقى من الركاب. بعض أفراد من الدرجة الأولى وعربة الطعام اندسوا بين ركاب الدرجة الثالثة والمتشعبطين فوق السطح وأخذوا يحرضونهم على ركاب عربة الطعام وعربة السواح، وسرعان ما استجاب لهم الجرحى والجياع، وأنت وأعضاء اللجنة مضطرون لحماية أنفسكم أولاً مـــن الهجمـــات الشرســـة من الحدايات والضباع وأيضاً من الفـــتوات الذين أصبحوا الآن يتحكمون فى بقية الركاب باستخدام الـــتحريض وإشعال نيران الغيرة، أصبح هؤلاء يعتقدون أن الفتك بالسواح سيفسح لهم مكاناً فوق السرابر المريحة، وأنت تعرف أن الفـــتوات قـــد استولوا على السرابر وعلى ما تبقى من الطعام فى عـــربة الأكل، بل واختطفوا الصحون والأدوات وأخفوها ليتجروا بهـــا بعد ذلك، وأنت تصرخ فى التليفون مطالباً المصلحة بإرسال عربات إسعاف وعربات نقل وأوناش لرفع العربات..وهم يقولون لـــك أنهـــم لعدم توفر هذه الإمكانات، قد تعاقدوا مع شركة أجنبية ســـتأتى بإمكانياتها الحديثة لتفتح مستشفيات ميدانية ونقطاً لتوزيع الطعام والأغطية، فبرغم أن الحادث وقع فى يوليو إلا أن الشهور مضـــت وجاء الشتاء، وسرعان ما تكتشف أنت أن الشركة ليست فاعلة خير، فالدنيا ليس فيها فاعلو خير على هذا المستوى، بل إن

أفــرادها بينهم هم أيضاً نصيبهم من الفتوات والأفاقين وسماسرة الخراب والنصابين وطالبى العمولات وأمناء القروض ..إلخ .

الترجمة الأكثر صدقاً لهذا الموقف هى :

ــ حكومــة وقطــاع عام بها عمالة فى غاية التضخم وبطالة مقنعة تجعل البنى آدم يكف عن أن يكون آدمياً، أجره زهيد لا يفى باحتــياجاته ولــيس مطلوبــاً مــنه أن يعمل شيئاً على الإطلاق، خصوصــاً وأن أفواجاً جديدة من الخريجين سوف تأتى غداً على الأكثر .

ــ ولكــن هــذا الفرد لديه شىء من السلطة، من الساعى إلى رئــيس الشركة، من رجل الأمن إلى الوزير، وعندما يبدأ الانفتاح يأتى رجال الأعمال الذين تجرى الفلوس بين أصابعهم . ومن أين هذه الفلوس؟ من البنوك، التى هى نفسها أصبحت دائنة لكل شركة صــناعية أو شركة مقاولات بعشرات الملايين، ولكنها لا تستطيع أن تكف عن التمويل .

ــ كل فرد فى الحكومة يمارس فرض الإتاوة على كل إجراء مطلــوب، والإجراءات كثيرة جداً، لن نستطرد هنا لأن القارئ قد شــبع من حكايات تبسيط الإجراءات أمام المستثمرين وأيضاً مما ينشر عن "الدرج المفتوح" .. إلخ .

ــ الدخــول فــى الســوق العالمــية يحد من اللجوء إلى طبع البنكنوت ، فهناك رقابة صندوق النقد وغيره ، العملة المحلية تتخذ وضــعها الصــحيح والصادق ، وهو أنها لا تزيد على واحد من عشرة مما تدعيه . أنا عندما زرت روسيا سنة ١٩٦٣ كان للروبل ثــلاث قــيم ، واحدة رسمية والثانية غير رسمية (الأولى جنيهان ونصــف والثانية ثلاثة جنيهات ونصف ، على قارعة الطريق أما الســعر الحقيقى فهو الدولار يشترى بأربعة روبلات مع أن سعره الرسمى دولار وواحد من عشرة) . طبعاً التصرفات العصبية تزيد الأمر سوءاً ، منها ما وقع عندنا فى أوائل الثمانينيات عندما صدر

قـــرار بمنع التحويل من الحسابات الخاصة ، "اللى عنده دولارات يجيـــبها وأنا اخصص له احتياجاته" ــ نكسة من نوع جديد هذه ، وأنـــا حضـــرت اجتماعاً للغرفة التجارية الأمريكية كان من بين المدعويـــن إليه المرحوم السيد كمال حسن على رئيس الوزراء إذ ذاك ، والسيد مصطفى السعيد وزير الاقتصاد ، الأول دعا الثانى ليجيب على سؤال عن مدى استعداد الحكومة لإعادة النظر فى هذا الإجراء الفظيع ، وكانت إجابته certainly not ، يعنى بالقطع لا، سرعان ما اتضح أنه بالقطع نعم، فالمشكلات الاقتصادية لا تنحل بالقرارات وإلا ما كانش حد غلب، هذه العَملة تسببت فى مزيد من انهـــيار الجنـــيه، أما الإجراء الآخر فكان أنكى وأضل سبيلاً وهو إصـــدار قـــرار بـــأن تدفع الرسوم الجمركية على السلع المعمرة بالدولار، أدى هذا إلى تزايد سعر الدولار بمعدل عشرة قروش كل طلعـــة شمس! فى كلتا الحالتين لم يكن الأمر يقتضى عبقرية آدم ســـميث لكـــى نـــتوقع النتائج. السلطة تتطلب شيئين : المفهومية والإخلاص. أحدهما لا يكفى . بعد هذا اقدمت الحكومة على رفع كبير لسعر الفائدة لتشجيع الناس على الادخار بالجنيه ، وحدث هذا فعـــلاً وباع الكثيرون أرصدتهم بالعملات الأجنبية، وأمكن تثبيت سعر الدولار لعدة سنوات ، فقط ، مرة أخرى ، مثل هذه المشاكل تـــنفع معها السياسة الحكيمة طبعاً ، ولكن إصدار القرارات أسهل بكثـــير من أن يكون عملاً له قيمة أو له فائدة ، تماماً كأن يصدر الطبيب قراراً بشفاء المريض ، سواء من الإدمان أو من الإيدز . ارتفـــاع ســـعر الفـــائدة هو نفسه شيء بالغ الضرر للمستثمرين وللاقتصـــاد بأكملـــه . وقـــد بدا ارتفاع سعر الدولار يفرض الآن نفسه، لأن ثباته كان نتيجة إجراء إدارى ، لا اقتصادى .

ــ ارتفاع سعر العملة الأجنبية يرفع سعر كل شيء فى الدنيا، موجـــة غلاء فظيعة تأتى مع الخصخصة ، يصاحبها ظهور سُنيع لما أسميناه "السلع الاستفزازية" ، وهو تعبير يدل على إقرارنا بأننا

"غلابـــة" ــ حسناً، نحن فعلاً كذلك، للأسباب المذكورة فى كل ما ســبق . الغــيرة ليست هى العاطفة الوحيدة التى يحس بها البشر ولكــن الحــرمان يقــدم أرضيه نافعة وخصبة تماماً لزرع الحقد وتدبير أحداث الأقصر، الضباع ومن وراءهم يلعبون علــى هــذا الوتر، وهذه من ألعن المشكلات التى تصاحب التحول.

ــ عندما يجد المستثمرون الأجانب أنهم يأتون بعملاتهم بأسعار مشجعة ثم تتزايد هذه الأسعار بشكل يعرضهم للخسائر فإنهم طبعاً لا يــتورعون عن أى عمل يحميهم منها ، بما فى ذلك الهرب بما تطوله أيديهم .

ــ الخصخصـــة نفســها ، بمعــنى بيع الشركات ، تكاد تكون أصعب شىء فى العالم ، من الذى سيقبل على شراء شركات :

١- غارقة فى الديون .

٢- مثقلة بالعمالة والبطالة المقنعة .

٣- معداتها قديمة وتكنولوجيتها متخلفة .

ــ الوضـــع السياســـى : عندما تعلن الحكومة أنها تفتح عصراً جديــداً مــن الحرية والديموقراطية ، وهى النظام السياسى الذى يناســب الخصخصـــة ويجلــب ثقة المستثمرين ورجال الأعمال العالميــن ، فإنهــا طــبعاً لا تســتطيع أن تقاوم عملاء الخراب بإجــراءات القمع أو الحراسة أو التعذيب والاغتصاب (هذا البند الأخــير من أمجاد الثورة ، لا أنصح أجهزة الأمن بممارسته إذ لا أظن أنهم سيستطيعون أن يعثروا على الكفاءات المطلوبة ، "فرج" الــذى صاح كمال الشناوى يستدعيه ليطلقه كالكلب المسعور على ســعاد حســنى، كان من بقايا العهد البائد ، مثل بقية رجال الفكر والفــن والرياضـــة ، الذين انقرضوا بعد ذلك) ولكن الاستقرار السياســـى مطلــب أساسى ، لكى لا نتداوى بالتى كانت هى الداءُ بحركة غير مباركة .

ــ على الصعيد السياســـى أيضـــاً ، لابــد من إعــادة "دولــة

المؤسسات" ، ثم "سيادة القانون"، استمرار الشمولية الإدارية يتنافى مع الحرية الاقتصادية التى لابد منها للخصخصة ، رجال الأعمال لن يستثمروا ــ سواء بإخلاص أم بغيره ، وأنت تقول لهم أنك "ستصادر نشاطه إذا انحرف" أو ستأتى فى أى يوم وتقول له أنه بسنى مصانعه "من أموال الشعب" ــ الديموقراطية إذن ! فقط .. الأحزاب .. إلخ ؟ الحرية تكون للجميع ، بما فى ذلك أعداء الحرية وسماسرة الخراب .. ، الحرية لك لوحدك وإلا أيه ؟ فى أوربا وأمريكا وكل العالم الحر ، ينشىء الناس ما يريدونه من أحزاب ، فما هذا ؟

هذا واحد من أوجاع الخصخصة ، "سيندروم" الخصخصة ..

النظام السياسى ؟ هل نفتح الباب ونتعرض لما جرى فى الجزائر والسودان ؟

أم نقفله ، وبذلك تستحيل الخصخصة ، أو تصبح مجرد شعار ؟

العالم الثالث وأنظمة الحكم :

يقول ابن خلدون فى مقدمته إن "الملك منصب طبيعى للإنسان" وأن البشر يستحيل بقاؤهم فوضى دون "حاكم يزع بعضهم عن بعض" ، وأن هذا بمقتضى الطبيعة البشرية هو "الملك القاهر المتحكم" ، وهو محق تماماً فى ذلك ، فالحكومة أكثر شرور الحياة ضرورة ، وقد اجتهد المفكرون فى إيجاد الوسيلة للحد من شرها وتعظيم فوائدها ، وكما قال ونستون تشرشل عن الديموقراطية الغربية ، أنها "أسوأ الأنظمة ، إذا استبعدنا البقية من المقارنة" ، كما هو واضح من هذه الكلمة اليونانية ، فهى تعنى حكم الناس لأنفسهم ، أو على الأقل مشاركتهم فى صنع القرار فى الأمور التى تمس مصائرهم وفيما يعيشون به من لوائح وقوانين .

وقد وجد علماء الإدارة المحدثون أن الديموقراطية لم تعد أساساً

للحكـــم فقط ، بل أيضاً لإدارة المؤسسات ، والذى يتابع ما يستجد فى علوم القيادة الإدارية ، سيجد أن القضية علمية وليست أخلاقية، إشـــراك العاملين فى اتخاذ القرار ليس مقصوداً منه مجرد تحقيق العدالـــة، بـــل الوصـــول إلى الرأى السديد، والذى أصبح فى ظل مقتضـــيات العصر أكثر تشعباً وتعقيداً من أن يقدر عليه فرد مهما بلغ من الحصافة .

والواقع أن فكرة الديموقراطية ليست شيئاً جديداً ، فكما جاءت حضـــارة الإغـــريق بملـــوك ليسوا آلهة، فإنها سبقت ذلك بعلماء ومفكريـــن ليســـوا كهـــنة، وهذا لأول مرة فى تاريخ البشر . من حـــامورابى ملـــك بابل القديمة ، إلى هيروهيتو إمبراطور اليابان الحديـــثة ، كـــان الحكام يرثون السلطة بحجة أن دماءهم مقدسة، وبالـــتالى فـــلا حـــق لأحـــد أن ينازعهم الملك أو حتى يبدى أى اعـــتراض على ما هو ــ والعياذ بالله ــ مشيئة إلهية ، والذين لا يدعون أنهم آلهة ، مفوضون ، مزودون بالتفويض الإلهى .

كانت أثينا القديمة أول مجتمع يمارس قدراً من إشراك سكانها فـــى الحكـــم ، الـــتجربة الأولـــى فـــى الحكـــم "الجمهورى" أو "الديموقـــراطى" ، ويهمنا هنا أن نؤكد أننا نستخدم هذه التعبيرات بمفهومهـــا الأصـــلى ، ولـــيس كمـــا كـــان فى "جمهورية ألمانيا الديموقراطـــية" وأشـــباهها . لماذا تجمد هذا الاتجاه لما يزيد على ألفـــى ســـنة مـــن تاريخ البشرية ؟ لماذا لم تتبلور الفكرة بظهور الأحـــزاب ــ وهى ضرورية لممارسة المعارضة ــ إلى أن جاء هـــذا مـــنذ ما يزيد قليلاً على مائتى سنة ؟ الذى نظنه أن الأفكار والفلســـفات والعقـــائد هـــى أمور لا تنطوى بمفردها على إمكانية تطبـــيقها . كـــان لابـــد من مجئ الطاقة الآلية لكى يتسنى تحريم العـــبودية ، وكـــيف يكون للعبيد حق التصويت ، سواء فى أثينا القديمـــة أو أمـــريكا الحديـــثة ؟ كان لابد من مجئ الصناعة لكى يـــتحقق قـــدر من الرخاء يمكن من سمو الإنسان فوق غرائزه ،

ولكى يستطيع أن يهتم بأمور المجتمع ويعبر عن موقفه منها دون أن يكـون مهدداً بتجويع أطفاله ، كان لابد من مجئ الطباعة لكى تـتخذ الصـحافة موقعهـا كسلطة رابعة ، كان لابد من اكتشاف الكهرباء لكى تأتى الإذاعة كوسيلة جديدة لتثقيف الجماهير ولحماية الـرأى العـام والارتقاء بالمعرفة والفنون ـ صحيح أنه فى ظل الأنظمة الشمولية تحولت هذه الوسائل إلى أدوات للقمع والإذلال . إلا أن هـذا يدلـنا علـى أن الفلسفة السياسية تصلح لتوجيه هذه الوسـائل نحو ما فيه خير المجتمع ورفاهيته ، ولكنها ليست بديلاً عنها ولا تصلح وحدها لتحقيقها .

بـل إن الديموقراطـية هى أيضاً سلاح ذو حدين. الواقع أنها بدون وعى جماهيرى رفيع المستوى ، خليقة بأن تخنق نفسها. وقد رأيـنا الاقـتراع الديموقراطى الحر يأتى بالنازية إلى السلطة فى مطلـع الثلاثينيات، وبالماركسيين فى شيلى بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، وبالأصوليين فى الجزائر بعد هذا بفترة مماثلة. وبينما نحن هنا لسنا فى مجال الحكم على هذه المذاهب بأنها خير أو شر، فإننا لا نقول عنها إلا أنها النقيض المباشر للتعددية الحزبية. وفى أوائل حكم النازيين قام عدد من المفكرين وأساتذة الجامعات فى ألمانيا، مـع عدد من قادة الجستابو، بحركة اعتراض عليه، وما كان من أدولـف هـتلر إلا أن قاد بنفسه فرقة من القتلة انقضت عليهم فى بيوتهم وأماكن عملهم فى مدينة ميونيخ ، ولم يحدث بعد ذلك شىء مـن هـذا لغاية انتحار هتلر، وأما فى النظم الماركسية، فقد كان الخروج على مبادئ الحزب جريمة يعاقب مرتكبها بأى شىء على الإطـلاق، وأمـا الأصـوليون فنحن نراهم يستحلون دماء الناس وأموالهم وهم خارج السلطة، فما بالك وهم حائزون لها! وقد تعب فلاسفة السياسة فى هذا التناقض، هل يجب على الديموقراطية أن تسـمح بقيام جميع الأحزاب بحرية تامة، بما فى ذلك من يرفعون شعارات الحزب الواحد والأيديولوجية المستبدة ؟ أم أنه يجوز لها

أن تحظر قيام أحزاب كهذه ؟ وهم يسمون هذه المشكلة Toleration of the Intolerant، يعنى احتمال ــ أو "إطاقة"ــ من لا يطيقون غيرهم ولا يحتملون أى معارضة وإذا وصلوا إلى السلطة فإنهم سيمحقون جميع الأحزاب والفرق، ولما كانوا سيصلون إليها بالاقتراع الديموقراطى فإنه لأمر عجيب حقاً أن تستخدم الديموقراطية التعددية فى القضاء عليها! كيف يسمح لفرقة أن تدخل كأس العالم بينما شعارها أن يكون اللعب بالنبوت وليس بالكرة ؟

الواقع أن الضمان الوحيد للديموقراطية هو الوعى الجماهيرى الذى لا يسمح بالانتقاص منها مع قدر من الرخاء يجعل الناس قادرين على التفكير فوق مستوى اللقمة . كان هذا هو ما رآه العالم يحدث فى أوربا وأمريكا الشمالية ، وبينما كان الخديو إسماعيل يعبر عن أمنيته أن تصبح مصر قطعة من أوربا، كان جد هيروهيتو يشرح الطريقة. "لقد أصبح لزاماً علينا أن نطلب المعرفة من كل مصدر توجد فيه فى أنحاء العالم وسوف يكون هذا هو الأساس الذى يقوم عليه الجهاز الإمبراطورى" ــ صدر هذا الإعلان سنة ١٨٦٨ وأطلقوا عليه اسماً يشبه "العهد الموثوق"، ورفع اليابانيون شعار "دولة غنية وجيش قوى" صحيح أن الممارسة الكاملة للديموقراطية (والذى نقصده بهذا هو فصل السلطات وإطلاق الحرية التامة للصحافة وللأحزاب ، وعدم وجود سلطة مركزية يحق لها تعطيل الدستور أو إقالة الحكومة إلا بنص الدستور). صحيح أن هذه الممارسة لم تأت إلا سنة ١٩٤٦، وبدأت بأن أصدر الإمبراطور إعلاناً شهيراً آخر فى بدايتها، يفيد بأنه قد تنازل عن ألوهيته وأقر بأنه مخلوق عادى مثلنا ، فقد كان إرساء الديموقراطية التعددية فى اليابان عندئذ ــ وبعد البدء فى حركة التحديث الشاملة بثلاثة أرباع قرن ــ كان هذا ترجمة لواقع مادى حاصل ملموس، وليس مجرد أمل فى حرية لا تتوفر لدى

الـناس أركانهـا. فهل هناك تجربة أخرى فى دولة أخرى خارج أوربا وأمريكا ؟ نعم، الهند ..

جاء استقلال الهند بعد إعلان إمبراطور اليابان عن آدميته بعام واحـد، وحظى حزب المؤتمر بالأغلبية ، برئاسة زعيم له تاريخ طويـل فى الكفاح، قضى فى سجون الإنجليز ما مجموعة خمس عشـرة سنة. هل نجحت الهند فى الوثوب فوق قرون طويلة من التطور فى عالم الغرب؟ أم عاقتها عن ذلك عوامل الفقر والتخلف؟

الوراثـة تقليد قديم وراسخ فى تراث القارة الهندية. وليس سراً أن جواهـر لال نهـرو بذل جهوداً كبرى ليتخذ من ابنته الوحيدة وريـثاً له فـى الزعامة ، وليس سراً أنها لم تكن راغبة فى ذلك وأنهـا تزوجـت برغمه شاباً سكيراً لم يكن هو راضياً عنه ، ما لبـث أن مـات بعـد أن أنجبت منه ولديها واكتسبت اسم أسرته "غاندي" ، ليست هناك صلة بالمهاتما العظيم ، ولكن للاسم سحره طـبعاً ، ورثـت أنديـرا رئاسة الوزارة بعد موت أبيها بسنتين ، ضماناً للاستقرار فى صفوف الحزب وفى المجتمع كله، (وقد رأينا سيريمافو باندرانيكا ترث زوجها فى سريلانكا المجاورة ، ثم ابنتها تـرثها بعد ذلك) ، وبدأت تعد ابنها الأصغر سانجاى لوراثتها ، معـروفة نوادره فى الفساد مما أدى إلى سقوطها وسقوط الحزب فـى أواسط السبعينيات ، بل وإلى حبسهما معاً ، إلا أنه بعد أربع سنوات فقط ، ورغم فشلها فى مشروعات كثيرة منها تعقيم الذكور للحد من التكاثر، عادت أنديرا إلى رئاسة الوزارة ، وبعد اغتيالها سـنة ١٩٨٥ــ وكـان سانجاى قد قتل فى حادث طائرة ــ أصبح الأخ الأكبر راجيف هو الوريث الطبيعى ، برغم أنه ــ مثلها ــ لم يكـن راغباً فى ذلك ، ومثلها ، سقط ومعه حزب المؤتمر ، الذى رأسـته بعـد اغتـياله زوجته الإيطالية المولد ، والذى تعد ابنتها بريانكا لوراثة العرش أيضاً. من بين أربعة وخمسين عاماً مضت علـى اسـتقلال الهند حاز نهرو وسلالته ما يقل قليلاً عن أربعين

عاماً منها . هل القيادة الصينية محقه فى أن الإصلاح الاقتصادى يجب أن يسبق الديموقراطية ، وأنها لا تأتى من ميدان السلام السماوى ؟

مجانية التعليم : من أمجاد الثورة :

ولا هو مجانى، ولا هو تعليم، ولا هو تعليم مجانى ؟

مبدئيا كده، ليس هناك شىء مجانى فى هذه الحياة . الأصل فى الحياة أن الإنسان يعمل ويتقاضى أجره أو ربحه إذا كان صاحب عمل، ثم يعطى جهده نظير احتياجاته ، اتفاقية تبادل هى: القطن المصرى فى مقابل الأناناس . ولكن السلطة تظل تتدخل فى هذه التعاملات بكل ما تتصف به من بهيمية .

لا يوجد شىء مجانى فى هذه الدنيا ، إلا إذا كان غير مرغوب فيه . وأرجو من القارئ أن يسامحنى عندما آتى بمثل بلدى كان يشيع فى بلدتى بورسعيد أيام أن ولدت ونشأت فيها : "مفيش حاجة ببلاش إلا العمى والطراش"، نعم ، إذا كنت لا تريد أن تبذل جهداً أو مالاً ، اجلس كالتنبل إلى أن يأتيك هذا وذاك فى أرذل العمر .. كفاك الله شر هذا وذاك .

ما معنى مجانية التعليم ؟

معناه أن أولادنا يذهبون إلى المدارس والكليات (ومنهم من يستخدمون البورش والبى — إم — دبليو لهذا الغرض ، وهؤلاء هم الذين احتجوا على أحكام الطيران ، حقاً ، العمى والطراش ، بعيد عنك) ، ويجلسون فى غرف الدراسة ولكنهم لا يدفعون المصاريف .

هل هذا يجعل التعليم مجانياً ؟

من الذى يدفع تكاليفه إذن؟ المبانى والكتب والمدرسين .. إلخ؟

هل القائمون على التعليم فى الدولة السنية قد ورثوا عزبة عن أجدادهم وهم ينفقون من إيرادها على أداء هذه الخدمة ؟

الواقع أن المكاتب الفاخرة والسيارات المرسيدس والبودى جارد والتغطية الإعلامية ، ثم رواتب الوزراء ومعاونيهم وكل ما هم فيه من نعيم، كل هذا من فلوسنا .. وإلا فمن أين يأتى؟ أولياء أمور هؤلاء الذين يتعلمون مجاناً، يدفعون ضرائب للدولة، والدولة تبيع المحاصيل والمشغولات التى ينتجها هؤلاء أنفسهم ، فما معنى كلمة "مجانى" هنا ؟

لست أفهم ما يتشدق به بعض الناس فى هذه المسألة ، هل الحكومة صاحبة فضل على الناس؟ أنها تعلمهم؟ الواقع أنها لو كانت تعلمهم لما كانت هذه طريقتهم فى التفكير .

ثم لماذا ؟ لماذا يكون التعليم مجانياً ؟

هل هو أهم شىء فى الحياة ؟ أهم من المأوى واللقمة وعلاج المرضى ؟ هل يأتى قبل كل هذا ؟ الواقع أن من لا مأوى له سيكون كالقطة الضالة ، لا يمكن أن يتعلم ولا أن يكون آدمياً . لماذا إذن لا تكون المساكن والملابس مجانية هى أيضاً ؟ لماذا لا نقيم موائد الرحمن لكل هذه الملايين ؟ لماذا لا نوزع كوبونات الكستور والدمور على الناس ؟ نعود من جديد إلى مغامرات الشيوعية . طبعاً هذا مرغوب فيه ، لأن إذلال الناس وسلب كرامتهم يجعل السيادة عليهم أسهل بكثير .

ثم هيا نتأمل شيئين : مستوى التعليم ، ومدى مجانيته .

الدولة نفسها أقرت ــ قبل أن يرحل الزعيم الخالد عن دنيانا ــ أن مظاهرات "الاحتجاج على أحكام الطيران" (لا حول ولا قوة إلا بالله !) . قام بها طلبة كليات القمة الذين هم بالضرورة أبناء الأغنياء الذين ينفقون الآلوف على الدروس الخصوصية ومن هنا التحقوا بهذه الكليات .

التعليم إذن :

أولاً : يتكلف الألوف فى الدروس الخصوصية .

ثانياً : لا يحدث فى المدارس بل فى البيوت .

هكذا يقول بيان الحكومة . وبالتالى فإن الفقراء لا يتعلمون .

هل هذه مجانية التعليم ؟

إنهـــا ــ مجانـــية التعلـــيم هـــذه ــ لا هى موجودة ، ولا هى مطلوبة، إنها فى الواقع خدعة حقيرة ، ومصيبة كبرى. خصوصاً إذا كانت السلطة قد بددت ثروة البلد فى مغامراتها الحمقاء ثم تأتى لتقول لى : أنا حاعلم ابنك أو بنتك مجاناً ! تسرق محفظتى وفيها راتبى الشهرى ثم تعزمنى على العشاء الذى هو ساندوتش طعمية. وجايف، لا يؤكل !

هل لابد أن ندخل الجامعات، كلنا ؟!

هل هناك شعب كله جامعيون ؟ مليون خريج جامعى كل سنة؟!

نحـــن نعـــرف أن خـــريجى كليات مثل الطب أصبحوا عمالة فائضـــة، بعضهم يشتغل بكل شىء إلا الطب، وأيضاً يعرف عما يشتغله أكثر بكثير مما يعرف عن الطب . "كلمتين وبس" كما يقول عمو فؤاد .

هـــذا لأن التعلـــيم أصبح هو أيضاً شعارات ، وسيلة "للطبطبة" علـــى الشـــباب، أوعوا تزعلوا ، كلكم حاتدخلوا الجامعة . رأيت خـــريج زراعـــة يشتغل بإصلاح التليفزيون فى العجمى ، ورأيت ســـاعياً فـــى مكتـــب صـــديق لى يحمل ليسانس الحقوق ودبلوم تخصـــص. لمـــاذا ؟ لأن الغـــرض من التعليم هو التعليم ، ولأن الجامعـــة هى عقل المجتمع ، وليست مؤسسة لتوزيع الشهادات ، مكتب التنسيق يقول لك أين تذهب ، وأين تذهب يعطونك قصاصة ورق تخـــرج بها إلى الحياة ، تبلها وتشرب ميتها. خريجو الآداب فى الآداب الأجنبية لا يتكلمون اللغة التى درسوها، وخريج الطب لـــم يلمـــس مريضاً فى حياته. كان عادل إمام صادقاً تماماً : بلد بتاعة شهادات.

والشـــعار المرفوع : ابن أفقر الناس يدخل الجامعـــة ! ليست هذه هى القضية. المهم أن تكون جامعة أولاً، ولا يهم بعد ذلك ابن

من يدخلها. أنا قضيت خمس سنوات فى هندسة القاهرة، ومن بين سبعمائة طالب كان هناك أصحاب سيارات يعدون على أصابع اليدين . وكانت مصروفات الدراسة خمسة وأربعين جنيها سنويا، خفضت ونحن فى منتصف الطريق إلى خمسة وعشرين ، كان هذا إذ ذاك يعادل مرتب شهر أو شهرين لصاحب دخل متوسط . كان الأساتذة فى الطب من نوع كامل حسين ونجيب محفوظ، وفى القانون من نوع السنهورى ووحيد رأفت ، وفى الهندسة من نوع همام محمود ووليم سليم ، أما فى الآداب فلست فى حاجة لأن أذكر أسماء ، لا أحد يعرف أبناء من كان هؤلاء ، وليس منهم من هو واضح أنه سليل أثرياء أو باشوات . الواقع أنه كان من السهل أن تتجنب دفع المصروفات، كان هناك طريقان: أولهما "المسابقة"، كل سنة توجد مسابقة لطلاب الثانوية (التوجيهية كما كانت تسمى)، فى كل فروع التعليم ، إذا نجحت فيها نلت المجانية طوال سنوات الجامعة ، الطريق الأخرى هى أن تنجح بدرجة معقولة من التفوق وتتقدم باستمارة معدة لهذا الغرض ، تقول فيها أنك ــ أو ولى أمرك ــ غير قادر على دفع المصروفات فتنال المجانية .

التعليم ليس قضية سياسية . مجانيته أداة سياسية ، بكل تأكيد.

كنت طالباً فى بورسعيد الثانوية ، وكنت شاعراً ، ولهذا كنت أتبادل الحب والإعجاب مع مدرسى اللغة العربية. وجاءنا مرة مدرس قضى بضعة أيام ثم نقل إلى الإبراهيمية ، وذكر لنا هذا "الإبراهيمية ــ جاردن سيتى" ــ لم أكن أعرف شيئاً عن جاردن سيتى وظننت أنها لابد أن تكون حديقة عامة مثل "جنينة فريال" فى بورسعيد . انتابنى شعور لا أنساه عندما اختفى من حياتى هذا المدرس الأديب ، وكتبت له خطاباً أعبر فيه عن شعورى ، ومعه رسم للفصل وفيه علامة تدل على موقعى لعلها تذكره بى، جاءنى رده فى الحال، يبدى إعجابه بـ "الرسم الجميل" الذى أرفقته ويضيف أننى لم أكن فى حاجة إليه، أنا أذكرك جيداً، أنت الذى

قلت كذا وكذا فى الدرس الفلانى .. هكذا كانت علاقتنا بمعلمينا . وأنا فى الهندسة كنا فى محاضرة فى موضوع عويص، الأستاذ في المدرج أحس بأن نقطة شرحها لم نفهمها جيداً ، فتوقف متسائلاً عما إذا كنا فهمنا ما شرحه ، وتصادف أن كانت أنظارى ملتقية بأنظاره، سألنى : أنت فهمت ؟ فلما أجبت نفياً، قال : ولماذا لم تقل ذلك ؟ أجبته : ربما أكون أنا وحدى الذى لم يفهم، أجاب : ولماذا تظن أننى لن أعيد الشرح من أجلك وحدك ؟ هكذا كان التعليم عندما كنا عبيداً .

إلا أنه ، حقاً ما فائدة كل هذه الخزعبلات من الفيزياء والكيمياء والأحياء وأبحاث الفضاء ؟ إذا كان التقدم الاجتماعى عوضاً عن التكنولوجيا والفارما كوبيا وكل أنواع اللوبيا والفاصوليا .. أليس الهدف النهائى هو الرفاهية ؟ سنوزع على أنفسنا عمر أفندى وملايين الأفدنة وخزائن المجوهرات ونصبح كلنا أغنياء .

الأقباط :

كلمة "مصر" واردة فى القرآن الكريم، مرات عديدة، وهى أيضاً تعنى "بلد" أو "قطر" ، خصوصاً فى صيغة الجمع "الأمصار"، ولكنها مع ذلك تأتى فى نصوص سامية اللغات "مصريم" ــ فيما يقال ، كانت اسم مصر فى أزمنه سابقة لنزول القرآن. ولكن كلمة "خمت" أو "كمت" كانت هى اسم البلد فى اللغة الفرعونية القديمة ، وكان معناها "الأرض السوداء" إشارة إلى لون أرضنا، الذى هو لون الطمى الذى نحن أيضاً مصنوعون منه، وإليه نعود . وقد كانت كلمة "القبط" هى التعبير الذى استخدمه الرسول الكريم فى رسالته إلى "المقوقس ــ عظيم القبط"، ومن كمت والقبط تأتى "إيجيبت" التى يستخدمها العالم كله فى الإشارة إلى مصر، فيما عدا المتحدثين باللغات السامية، ومنهم الإسرائيليون. والله أعلم. ولو ترجمنا "إيجيبتير" حرفياً فإنها تكون

"الخطـــوط الجويـــة القبطية"، ولكننا مع ذلك نستخدم تعبير القبط والأقباط فى اللغة والمناسبات الرسمية فقط، أما فى أحاديثنا العادية فإنـــنا نشـــير إلى "إخواننا الأقباط" بتعبير المسيحيين، ظناً منا أنه تعبـــير مهـــذب وأكثر لياقة، وهو ليس كذلك على الإطلاق، ففى تاريخـــنا أربعة قرون هى "العصر القبطى" ولا يمكننا أن نسميها العصـــر المســـيحى ، كما أن اللغة قبطية والفن القبطى والمتحف القـــبطى، فى كل هذا لا يمكننا أن نستخدم كلمة "مسيحى" بدلاً من قـــبطى، كل ما هو قبطى مصرى، أما مدلول المسيحية ــ سواء البلدان أو الناس أو الفنون، فشىء مختلف تماماً .

التماســـك الاجـــتماعى ظاهرة أساسية وبالغة الأهمية فى حياة البشـــر. وهى فى المجتمع القبلى تتمثل فى أعلى درجاتها، القبيلة تضمن للفرد حياته وغذاءه وأمنه، وهو يعطيها الإخلاص والطاعة والالتزام. مع التطور، أصبح واضحاً فى المجتمع الحديث ضرورة إيجاد التوازن بين التماسك الاجتماعى الذى يحقق الأمن للمجموع وللفـــرد، وبيـــن الفردية التى تهيئ الاستقلالية والحرية، والإبداع والنبوغ .

مـــن هـــنا فإن كل مجتمع على وجه الإطلاق توجد فيه الفئات المخـــتلفة ، والدرجـــات المتفاوتـــة من الانتمـــاء ، والفئـــات أو الجماعات قد تكون دينية أو عرقية أو لغوية ، الأكراد فى العراق مـــثلاً يجمعون بين هذه الخواص الثلاث ، وكذلك الفرنسيون فى كـــندا، والطامعون فى السلطة والزعامة السياسية يلعبون على ما يجدونه من هذه الأوتار الثلاثة طبعاً ، ويملؤون قلوب الناس بالحقد ويصيبونهم بما لا حدود له ولا نهاية ، من التعاسة والبغضاء التى يجـــنون هم ثمارها متمثلة فى كل ما تأتى به من النعيم : السلطان وحـــريم الســـلطان ، قصـــة قديمة ومعروفة. إنها أحسن تلخيص لتاريخ البشر .

وقد درج الناس على استخدام كلمة "الأقلية" لوصف هذه الفئات

الاجتماعية، لأنهم عادة يتميزون عن باقى المجتمع بأنهم أقل عدداً، والأقليات قد تكون أدنى مستوى من أغلبية المجتمع وقد لا تكون. من أشهر الأقليات وأكثرها أهمية ودلالة الأقلية السوداء فى الولايات المتحدة ، والتى تحولت من عبيد أرقاء جاء بهم تجار الرقيق متكدسين فى أقبية السفن يجدفون تحت لسع السياط فى ظروف تقوم قيامة العالم فى عصرنا هذا لو استخدمت مع المواشى ، تحولوا من هذا إلى واحدة من أعظم القوى الاجتماعية فى هذا العصر . وهذا بفضل زعيمهم العظيم القسيس الشاب مارتن لوثر كنج ، الذى بنى فلسفته على رؤية المهاتما غاندى للزعامة السياسية التى تقوم على العصيان المدنى لا على العنف أو اللجوء للقوة . وهذا طبعاً كان قد ظهر بين الزنوج الأمريكيين من يدعون إليه ، وما يزالون . فأمام الأقلية عدة طرق تنهجها عندما تحس ــ أو عندما يجعلها قادتها تحس ــ بأنها مضطهدة ، وقد ظهر بينهم من يدعون إلى الماركسية لتكون سلاحهم فى محاربة السطوة أو السلطة فى هذا المجتمع الرأسمالى الذى تقف القوى الشيوعية العالمية منه موقف العداء ، ومنهم من دعا إلى الإسلام كسلاح للمقاومة فى هذا المجتمع الذى تسوده المسيحية ، ومنهم من دعا إلى مجرد العنف : النسف والإغتيال .. إلخ ، هذا الزعيم اتخذ الأسلوب الوحيد الذى ينفع الضعيف فى مواجهة القوى وهو استخدام العقل . أن الإنسان البدائى ــ والحديث ــ يغلب الأسود والنمور لا بأنيابه بل بعقله .

والواقع أن الامتياز هو أقوى سلاح فى يد الأقلية الاجتماعية وسبيلها إلى الثبات فى مواجهة الأغلبية بل وإلى التحكم فيها أحياناً، سواء كان معنوياً ــ كالتفوق فى العلوم أو الفنون ــ أو مادياً كالثراء . وهذا هو ما توصل إليه اليهود على مستوى العالم، وما توصل إليه الزنوج الأمريكيون ، فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين وبفضل السياسة التى اتبعتها قيادته ــ "سانتيا

جراها" ، هو اسمها بالهندية ، يعنى "قوة الحقيقة، أو الحب" ، وقد كتب كنج يقول أنه كان قد نشأ على الاعتقاد بأن سياسة التسامح التى دعا إليها السيد المسيح لا تصلح إلا للتعامل بين الأفراد وليس الجماعات ، ولكنه عاد فوجد أن المهاتما غاندى هو المفكر الوحيد الذى استطاع أن يترجم تعاليم المسيح إلى فلسفة سياسية قومية وعالمية . ومن هذا الطريق توصل الزنوج الأمريكيون لا إلى المساواة التامة فى الحقوق مع بقية المجتمع ، بل لقد سادوا دنيا الفنون والرياضة على مستوى العالم كله وأصبح من بينهم شخصيات وفرق على أعلى مستوى بكل مقياس .

"الأقباط المصريون ليسوا أقلية" ، هكذا يقول البابا شنودة ، وهو طبعاً يقصد أنهم ليسوا مختلفين عن الشعب كله في شيء وليسوا متميزين حتى يتعرضوا للتمييز . صحيح هذا طبعاً فى قدر كبير منه ، فالأقباط لا يتكلمون اللغة القبطية بل لا يعرفونها، وإذا دخلت كنيسة لتحضر الصلاة فإنك ستجد أغلب الأناشيد الدينية عربية اللغة، أما على الجانب العرقى ، فالأصول العرقية بالطبع مختلفة ، فالمصرى ــ إذا افترضنا النقاء العرقى، وهو مستحيل طبعا بعد مضى كل هذه القرون من التزاوج مع كل الأجناس ، سواء كنا مسلمين أو أقباطاً ــ المصرى قد يكون سليل العرب الذين جاءوا سنة ٦٤١ م ، أو قبطياً من نسل المصريين القدماء ــ والذين تناسلوا مع الفرس والإغريق والرومان بدرجة أو أخرى أو خالطوهم أو امتصوهم كنازحين ، كما قد يكون ــ المصرى ــ سليل التزاوج بين العرب والقدماء الذين اعتنقوا الإسلام ، ولا يبدو أن أحداً يعرف نسبة هؤلاء على وجه الدقة ، فهو تاريخ قديم . كائناً ما كان الأمر ، فالمصريون ــ أقباطاً كانوا أو مسلمين ، يتخذون أشكالاً متعددة ، حسين فهمى مثلاً مصرى مسلم كما هو واضح من اسمه ، وأحمد زكى أيضاً ، لويس عوض ونجيب الريحانى قبطيان مصريان وهكذا . وكان الريحانى زوجاً لبديعة

مصابنى وهى ــ مثل الكثيرين من أبناء الطائفة الكاثوليكية ، تبدو "خواجايــة" أكــثر من حسين فهمى . خلاصة القول أن المصرى "الــنمطي" لا يخــتلف كثيراً فى ملامحه عن البقية مسلماً كان أو مســيحياً . الأســماء هى التى تدل على الهوية الدينية فى مصر، وكما يختلف السلوك الاجتماعى للأقليات كما أسلفنا ، فإن الأقباط المصــريين قــد يتســمون بأسماء فرعونية ، وكان لى زميل فى المدرســة اســمه تحــتمس ، إثباتا لهويتهم الأصلية ، أو بأسماء مسيحية مصرية (وأغلبنا لا يعرف أن المسيحية انتشرت فى مصر قبل أوربا بكثير) مثل يوحنا ، ومنهم من يستخدم الصيغة الأوربية لنفس هذا الاسم ، وهى "جون" ــ وأعرف صعيدياً اسمه جون ــ ومــنهم مــن يفضل الصيغة العربية لنفس هذا الاسم فيسمى ابنه "يحــيى" ، جميع هذه الأسماء تستخدم ومعها كل أسماء المسلمين التى ليست أسماء الرسول عليه السلام أو صحابته المقربين . ومن بين أبناء يوسف الشارونى وأحفاده ستجد أسماء "شريف" ثم "شادن" وهــى الإذاعــية المعروفة ، وهذا اسم عربى صرف من أسماء الغــزال ، ثم تجد "جويس" وهو اسم خواجاتى طبعاً ، ثم "رؤوف" وهكذا . أما "يوسف" ذاتها فهو اسم جميع الأديان ولا عجب ، فقد كان يوسف رسولاً عبرانياً ، وكان أيضاً مصرياً عاش ومات فى مصر، ثم هو مذكور فى القرآن الكريم طبعاً .

الأقباط المصريون إذن قد لا يكونون أقلية لأنهم ليسوا متميزين أو منفصــلين، لا عــرقاً ولا لغة (ولا يفوتنى أن أشير إلى تحفة المفكر الراحل جمال حمدان، "شخصية مصر" وقد أفرد فيها فصلاً عــن تفســيره لوجــود أقلية دينية فى مصر ولكنها هجرت لغتها القديمة واتخذت العربية، والفرق بيننا وبين المغاربة فى أن أقلياتهم فعلــت العكس، فهى عرقية لغوية وليس دينية) ولكن هذا لا ينفي أنهم اقل عدداً من المسلمين. وهذا فى طبيعة البشر يخلق إحساساً بضرورة التعويض، بالامتياز الفكرى أو المهنى أو بوفرة المــال

..إلخ .

لغايـــة .. "الـــثورة" ، (أمرى إلى الله ، أظن أنه قد آن الآوان لـــتعديل القاموس والكلمات كثيراً ما يتغير مدلولها فى كل اللغات، ثـــار يثور ، ثار الشيء أى أمسك به ورزعه فوق الأرض فانهال قطعـــاً متـــناثرة) ـــ نعم ، لغاية الثورة كان ما نسميه الآن "السلام الاجتماعى" سائداً بشكل لا نظير له . ويقال أن غاندى كان معجباً بسعد زغلول لأن قيادته حققت وحدة كاملة بين الطائفتين. كان هذا طبيعـــياً للســـبب الـــذى أسعى إلى إظهاره ، وهو أن ألعن أسباب التعصب والفرقة الاجتماعية هو الفقر ، وقد كان الفقر ـــ ومازال ـــ يتمثل فى القارة الهندية بشكل تحسدها عليه الزعامات السياسية فـــى أنحاء العالم ! أما المصريون فى عصر سعد زغلول فكانوا طـــبعاً فقراء أيضاً بالنسبة لأوربا ولكنهم لا ينامون على الأرصفة بالملايـــين ولا يهلكـــون بفعل الجوع والأوبئة . ومعروف تاريخ الأقـــباط فـــى الكفـــاح ضد الإنجليز وأنهم لم يكونوا أقل تعرضا لرصاص الإنجليز ومشانقهم .

مـــاذا كان موقف الأقباط من الإنجليـــز ، من حيث أن هؤلاء وهؤلاء كلاهما مسيحى ، ومصر الآن دولة دينها الإسلام ، وأغلب شـــعبها مسلمون ؟ كما قلنا فيما سبق ، الإنسان لا يتكون من دينه فقـــط . هـــناك وطـــنه ولغته وأسرته ، وهناك انتماءاته الفردية والفكـــرية . ومن هذا كله يتكون موقفه السياسى . مبدئياً، الأقباط المصـــريون أغلـــبهم أرثوذكـــس يتبعون الكرازة المرقصية التى يرأســـها بطريرك الإسكندرية وسائر إفريقيا ، وهو كرسى بابوية مستقل عن بقية كنائس الشرق والغرب منذ منتصف القرن الخامس المـــيلادى ، وبذلـــك فـــإن العقـــيدة المسيحية عند الإنجليز وعند المصـــريين ليست واحدة لأسباب فلسفية دينية والفارق لا يختلف كثيراً عن الخلاف العقائدى بين الشيعة والسنة عند المسلمين ، وإن كـــان طـــبعاً ـــ كما هو الحال ـــ دائماً ـــ مشوباً بالسياسة . نقول

"دائمـاً"، لأن كـل ديانة جديدة تظهر وكل مذهب يتبلور داخلها ، تكـون له عواقـب سياسية ، خروج موسى بقومه من مصر كان هرباً من اضطهاد فرعون مصر لهم ، وكذلك فإن صحابة الرسول علـيهم السـلام ، وكل من آمنوا به ، هاجروا معه من مكة لأن "قراعنة" قريش أحسوا بأن سطوتهم السياسية بدأت تنحسر وأرادوا أن ينقضـوا على المسلمين بسيوفهم ، وهذا طبعاً أدى إلى غزوة بدر وما تلاها من الحروب .

القـبطى المصرى ليس "خواجا" بأى شكل ولا بأى درجة، ولا القبطـية المصـرية خواجاية. ومما يذكر هنا أن "المجاهد الكبير" مكـرم عبـيد حذف اسمه الأول "وليم"، وكان الوفديون المسلمون يسـمون أبناءهم "مكرم" ــ وكذلك فعل أخواه فكتور(فكرى مكرم) وفـريدريك (فـريد). وفكـرة تعاطف الأقباط مع الإنجليز أو مع الإسرائيليين هى وليدة التعصب الجديد الذى جاء مع الثورة والتى تـتحمل مسـؤوليته بما جلبته على البلد من هذا الشيء الذى هو التربة الخصبة التى يترعرع عليها التعصب ولا ينمـو إلا فيـها: الفقر .

الإخـوان المسلمون طبعاً موجودون من قبل أن تأتى الحركة المـباركة ، بل إنهم تبادلوا صلات الغزل والغرام مع تلك الحركة وزعماؤهـا احـتفظوا بها بعد حل الأحزاب ليستخدموها كأداة ثم استداروا إليها وواجهوها بكل وسائل البطش. ولكن حركة الإخوان لم تنجح بزعامة حسن البنا لأن الفقر لم يكن كافياً، ولأسباب أخرى مـنها أنها بدأت تدعو لأفكارها لا بالحكمة والموعظة الحسنة بل بالقنابل والاغتيالات .

فى فيلم سينمائى فى تلك الحقبة اسمه "أرواح فى البحر"، نرى جـارى كوبـر يقود زورق نجاة بعد غرق باخرة، ويتخذ وضع "الزعـيم" ، وعـندما ازدحم القارب أخذ يلقى ببعض الركاب فى البحر لكى لا ينقلب زورق النجاة ، ويموت الجميع . الناس عندما

يجوعـــون فـــإن قـــيادتهم قد تجد أن عليها أن تتخلص من بضعة ملايـــين لكـــى يتسنى أن يعيش البقية على القليل المتاح . من هنا تظهـــر "المذاهب الهدامة" وهو التعبير الذى كانت تطلقه الصحافة المصرية على الشيوعية والإخوان والفاشية متمثلة فى مصر الفتاة مـــثلاً . إلا أن الســـلطة ـــ أى ســـلطة ـــ تستطيع أن تنقض على أوكـــار الشيوعية وتصادر "خطوة للأمام وخطوتان للخلف" أو "ما العمل" وغيرها من خزعبلات لينين وأشباهه . فقط لن تستطيع أن تصـــادر المصحف وصحيح البخارى أو مسلم. ولكن الحق ، كما قـــال علـــى كرم الله وجهه، قد يراد به الباطل. ولدينا من العلماء الأجلاء من أفادونا بأن قتال غير المسلمين أيام الدعوة كان دفاعاً عن النفس وأن الدعوة فى أوائنا سبيلها الحكمة والموعظة، وليس المفـــرقعات والرشاشات. ولكن الحقيقة تبقى وهى أن السلطة لابد أن تدفـــع عن نفسها تهمة الكفر، وعليه فإن ميكروفوناتها لابد أن تعلـــو فـــوق صوت المعركة هى أيضاً . خصوصاً عندما تتحول أماكـــن العبادة إلى مقار للحزب العالمى، ولابد من أداء الصلوات الخمس فى المسجد لا لأن الله يأمرنا بذلك، فهو يأمرنا بأداء صلاة الجمعـــة فقط هناك، ولكن الفتاوى ـــ وهى حق لا ينكر، يراد به أمـــر آخر ـــ تؤكد أن الثواب هنا أعظم، لكى تحكم القيادة قبضتها وتنشر أنواعاً من ال "يونيفرم" فى مظاهرة فاشستية شبه عسكرية.

لا أحـــد يعـــترض على الاحتشام ، ولكنه هنا ليس سوى نظير للقمصان السود والزرق ، رداء عسكرى ، وكانوا قد بدأوا يرشون الأحمـــاض الكاويـــة علـــى كل إمرأة لا ترتدى لباس الحزب، بل ويشـــجعون الشـــباب علـــى الاعـــتداء عليهم ، فى إحدى قضايا الاغتصـــاب ، قيل إن الشباب معذورون ما دامت الفتيات يظهرن أمـــامهم بشـــكل مثير ! يعنى كونوا ألعن من الحيوان ! من الذى يســـتطيع أن يحـــبس غريزته عندما يرى ذراعى امرأة ؟ لا أحد يعترض على " السلام عليكم " ، فهذه تحية درجنا عليها . ولكنها

هـنا هـي " هايل هتلر " ـ كل هذا يجد تربة صالحة فى المعاناة واليأس والحرمان . من هنا جاء الاعتداء على السواح فى مصر ، أسهل طريق لمزيد من الفقر فى ساعة واحدة !

يـرى الـبعض أن السادات هو الذى تسبب فى كل هذا عندما اسـتعان بالجماعات الإسلامية لقمع الشيوعيين ، وأنا أقول أنه لا السادات ولا أى سلطة تستطيع أن تبث دعوة كهذه فى مجتمع يجد فيه الناس أعمالاً يشتغلون بها وحياة يعيشونها ومدارس يتعلم فيها أطفـالهم . الـبطالة والفراغ هى التربة الصالحة لبذور التعصب والحض على العنف ، باستغلال مشاعر الغيرة الطبيعية ، وهى ـ كمـا أسـلفنا ـ جزء من سيندروم الخصخصة، والمشاعر طبعاً موجودة أصلاً ، ولكن النظم الفاشية هى أصلح النظم لكبح الفاشية، والوحشية فى قمع حركة الإخوان بدرجة من الفظاعة لم يكن هناك داع لها، لعبت ـ إلى جانب إفقار البلد ـ دوراً أساسياً فى تشجيع هـذا التـيار ، ونذكـر القارئ بحادث الاغتصاب الجماعى الذى تعرضـت له ابنة أخت واحد من المعتقلين (لعله كان سيد قطب)، إن العلاقـة الزوجـية الـتى شـرعها الله وسـيلة لـبقاء الحياة واسـتمرارها، لا تسـتخدم كعقوبة إلا عند من هم دون البهائم ، فالـبهائم تعـرف كـيف تمارس الحياة كما خلقها الله، ووصفهم بالبهيمية إهانة .. ، للبهائم .

ولى صديق ينتمى لما يسمى الناصـرية ، قال لـى مـرة : أنسـيت المحاكم المختلطة (وأنا لم أنسها فقد كان بيتنا مواجهاً لها فـى بورفؤاد) ، أنسيت أنه لو تشاجر أبوك مع خواجا ، فإنه كان سـيقف موقف المتهم المحكوم عليه سلفاً من قاضى تلك المحكمة؟ أجبته : ربما ، ولكنى واثق من شىء واحد ، وهو أن أمى لم يكن سـيؤتى بهـا إلى قشلاق الشرطة العسكرية فى الجيش الإنجليزى ليغتصـبوها وأبى وأنا واقفان نتفرج . أنا شخصياً أفضل أن أقف أمام القاضى الخواجا (كان فى المحاكم المختلطة قضاة مصريون ،

وكـــان أحدهـــم يقضـــى الصـــيف فى بورفؤاد وكان صديقاً لنا ، المرحوم المستشار حسين إدريس) ــ أفضل هذا كائناً ما كان الظلم الـــذى ســـيقع ، فالظلم من طباع الآدميين ، أما الاغتصاب فلا ، أفضـــل هـــنا أن أقتـــبس هذا العنوان الذى رأيته على غلاف فى معـــرض الكـــتاب ، لكاتب سودانى كانت صورته بردائه الوطنى على الغلاف : ملعون أبوكى بلد !

هكـــذا يجعلون الإنسان يتجرد من أصوله ، يسخط على التربة الـــتى نبت منها ، يحاول أن يخرج من جلده ، يهرب من دمه كما يقـــول إبراهـــيم ناجى . حقاً! ملعون أبوكى بلد إذا كان هذا ثمن الوطنية ، أمى وابنتى وكرامتى وكيانى ، ووجدانى ، وكل شىء. كـــل هـــذا مـــن أجل اقتسام الغنيمة ؟ من أجل حفنة جنيهات فى الخزنة؟! أنا واحد ممن لم يؤخذ منهم شىء ، ولم يكن لدى وليس لدى الآن ما يستحق الأخذ . الذى أخذوه منى هو مصر ، قبطيتى هـــو ما أخذوه ، وليس لدى أمل كبير فى استردادها ، لأنه لم يبق منها هى أيضاً ما يستحق أن يسترد .

يذكـــرنى هذا بجلسة على مقهى فى المغرب ، نبيل شعث ، لم يكـــن وزيراً إذ ذاك ، كان ــ وما يزال ــ يملك مؤسسة "الخبراء العرب فى الهندسة والإدارة" ــ وأنا كنت واحداً من هؤلاء الخبراء ١٩٧٩ ــ ١٩٩٤ ، وكـــنا فى رحلة عمل ، وكان ثالثنا واحد من شـــركائه ، (وهم لبنانيون وفلسطينيون ومصريون) دار الحديث ، وسألنى هذا : قل لى يا سيد حديدى ، أنت واحد ممن أضيروا من الـــثورة ؟ ونظـــرت إليه قائلاً : أنت سعيد بضياع الضفة الغربية والقدس ؟ دعنا من سيناء ، أنا منشغل بالقضية ، ما رأيك ؟ قال : "مـــن حيـــث النتائج طبعاً .." ــ تبين لى عندئذ حقيقة وضع عبد الناصـــر عندهم ، أنه صاحب دكان يبيع الـــ "ميلك شيك" ــ لبن الجاموسة ممزوجاً بدم أصحابها .

هذا التيار الدينى ، ما أثره على الأقبـــاط ؟ وعلاقتهـــم بأبنـــاء

وطنهم ؟ عندما يسمعون من يقول أن أموالهم ومتاجرهم حلال لنا وأنهم كفرة ..إلخ ؟ السادات هو الذى فعل هذا ؟ إن الشرور التى أزاحها عنا عندما أزاح العصابة الإجرامية، تكفى ــ فى رأيى ــ عـذراً له فى هذا، ولا ننسَ الأزمات التى أخذ يجتازها واحدة بعد واحـدة بما يكفى لتحطيم أشد الإرادات صلابة. ولكنى أكرر: مثل هذه الشعارات وما يصحبها من ممارسات يستجيب لها الناس بقدر معاناتهم، وهى تحدث فى كل بلد. فى الحزب الجمهورى الأمريكى يوجـد جناح يدعو إلى "العودة إلى يسوع"، وكان زعيمه فى وقت مـا شابٌ رأيته يتحدث فى التليفزيون. لا يشعر به أحد ، فرصته فى الزعامة أن ترتفع نسبة البطالة أو تحدث كارثة قومية .. إلخ .

شرفت وسعدت بلقاء البابا شنودة مرة واحدة فى حياتى ، منـذ أكـثر من ربع قرن ، فى دير فى وادى النطرون، كنت قد ذهبت مـع جمـع من الأصدقاء لنزور مهندساً تربطنا به علاقات عمل وأخـوة وصداقة ، كان قد دخل لتوه سلك الكهنوت ــ رحمه الله كان إنساناً نادراً ، وتصادف أن رأينا البطريرك وهو يقترب منا، وكان قد أسمى هذا الزميل باسمه ، "شنودة" ، تكريماً له ، قدمنا له أنفسـنا ، كـنا حوالـى خمسـة عشر أو أكثر ، والتقطنا صوراً تذكاريـة، وبدأت المحادثة : "شوف يا أستاذ حديدى .." هكذا كان ينادى كل واحد باسمه كما لو كان يعرفه : كان ما يزال فى شبابه إذ ذاك طبعاً ، لو أن نعمة الله عليه ما تزال ، فلن أدهش كثيراً لو أننى قابلته الآن ، ووجدت أنه مازال يذكرنى .

أنت مالك ؟

"أسرّ إلى أحد المقربين من الرئيس الراحل سنة ١٩٦٦ أن صفياً من أصفياء الرئيس جاءه ضابط من المخابرات يشكو جريمة ارتكبت أمامه وهي أن فلانة بنت أخت المعتقل فلان ، وهى لم تتجاوز الرابعة عشرة، قد أحضروها وفسقوا بها جندياً بعد آخر حتى ماتت . وذعر الصفيّ لهذا النبأ وذهب فى سيارة الراوية إلى بيت الرئيس لينهى إليه هذا النبأ الخطير الذى تجرد من إنسانية الإنسان ونقل مصر إلى حياة الغاب ، وإذا بالرئيس يقول له "وأنت مالك ؟ هى بنت أختك ؟"

الدكتور . إبراهيم عبده : تاريخ بلا وثائق

أظن هذه القصة وحدها تكفى لتفسير ما يدور فى الشوارع من علامات الساعة.إذا كان كل واحد منا غير مختص سوى بشؤونه هو؟ومع إقرارى بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، فإننى أقطع ــ كما قلت فى ندوة قريبة ــ بأن مشكلات الفوضى التى تسود شوارعنا لا يمكن أن تتحسن، بل إنها ستظل تسير من سئ لأسوأ، لأنها مشكلة نفسية، ولا علاقة لها بالأحزمة ولا بأى شىء آخر يمكن استيراده .

سألنى صديق لى : ألا ترى أننا نتحسن ؟

أجبته : إننى أرى قدراً هائلاً من التحسن والجهود الطيبة المثمرة . فى مجال المادة فقط ، جسور وكبارى وانفاق وطرق ومطارات وفنادق سياحية ، وشبكة تليفونات تذكرنى بيوم فى أوائل السبعينيات ، استبد بى الغيظ وانطلقت إلى السنترال الذى

اتبعه ، مبني يشبه الإسطبل (ليس إسطبل داوود ، إسطبل العتريس) ، ودخلت إلى حيث كان المسؤول ، وقلت له : ما عنديش حرارة بقالى شهر! أجاب الشاب : يابيه شيل التليفون اللى على مكتبى إذا كان فيه حرارة يبقالك الكلام . المجارى مثلاً ، سبق أن ذكرت الوحل الذى غرقنا فيه ، لولا عشرات الألوف من الملايين التى أنفقت أخيراً على شبكات الصرف الصحى من أموال المعونات الأجنبية لما كنا الآن غارقين فى الوحل وحده . كبارى القاهرة كلها تجددت ، لم يبق سوى كوبرى قصر النيل ، وأدعو الله ألا يقربوه ، أن يتركوه لنا كذكرى عزيزة لماض عزيز .

أما الإنسان فليس إصلاحه سهلاً. الكثيرون منا يصلحون سياراتهم أو أجهزة حياتهم، ولا يجدون إصلاح أنفسهم بهذه السهولة .

استرداد القيم .. أصعب كثيراً من إضاعتها ، ولكن هناك أساساً يجب إرساؤه ، وهو أن نصارح أنفسنا والعالم بالحقيقة ، لكى نتجه إلى المجتمع الدولى ، وهو ما دأبنا عليه الآن أكثر من نصف قرن، علينا أن نكتسب احترام العالم ، والناس لن يحرصوا على صالح من يخدعون أنفسهم ومن يلهجون بحمد من أذلوهم وأوردوهم أسوأ وأهون مصير .

كتب واحد من الفضلاء منذ فترة يقول أن أبناءنا فى المدارس ، لديهم كتابان ، أحدهما يقول إن محمد نجيب هو أول رئيس جمهورية لمصر ، والثانى يقول إن جمال عبد الناصر هو أول رئيس جمهورية لمصر ، ما الذى نريده من المجتمع الدولى ، إذا كان يرانا نكذب على أبنائنا فيما لديهم من كتب تعليمية هزلية ؟

قرأت منذ فترة عنواناً فى جريدة : "مداهمة وكر للدروس الخصوصية" ــ وكر للتعليم ! علمونا أنه من الأفضل أن نمنع الخير لكى لا يقال اشمعنى هذا ولماذا ذاك . أما سكان المعمورة وأصحاب الفيلات التى "تقام فوق الربى والتلال" كما قال المرحوم

سراج الدين ، فمسألة أخرى .

مازلنا نتحدث مع أبنائنا فى المدارس، ولأنفسنا فى التليفزيون والصحف، عن ثورة يوليو المجيدة مع أننا نبذل كل جهد لمحو أمجادها! ألم نرجع الأحزاب بعد إلغائها؟ ونتصالح مع الدنيا بعد أن قطعنا علاقاتنا مع طوب الأرض نفسه؟ ألسنا نستميت من أجل الخصخصة بعد تأميم كل شيء، لا من أجل ظروف طارئة، بل لأن هذه هى "عقائدنا". كل هذا كان مجرد أخطاء صغيرة يجرى تصحيحها؟

من الأمور التى طالما حيرتنى : جاء الإنجليز إلى مصر وطبعاً أثار هذا نفس رد الفعل الذى حدث عندما جاء نابليون . أحدهما كان سيأتى على كل حال ، فقط ما يحيرنى هو ، عندما وقف زعماؤنا فى وجه هذا وذاك ، هل كانوا ــ مصطفى كامل أو محمد فريد ــ يفضلون الحكم العثمانى ؟ لقد اكتسبنا بعض المعرفة من الإنجليز، أظن أكثر الناس تعصباً لن يستطيع أن ينكر ذلك، فما الذى تعلمناه من العثمانيين ؟ الضولمة يا ترى أم الظلمة ؟

قرأت فى شبابى كتابين جلبا لمؤلفيهما قدراً لا بأس به من السخط، الأول هو "الإنجليز فى بلادهم" للدكتور حافظ عفيفى، الذى كان من أقطاب الاقتصاد والسياسة وكان رئيساً للديوان الملكى لغاية قيام الحركة المباركة، والثانى "أمريكا الضاحكة" لمصطفى أمين، مؤسس أخبار اليوم. كل منهما يصف الحياة فى تلك البلدان. شئنا أم لم نشأ، هؤلاء هم صناع حضارة العصر الذى نعيشه، أكرههم كما تشاء وقاطع كل ما جاؤوا به، من قرص الإسبرين إلى قرص الكومبيوتر، فقط قل لى ما الذى سيتبقى مما هو ليس مصدره هذه الحضارة ؟ إن كوب ماء تشربه يجعلك تتعامل معهم .

هؤلاء الناس تهذبوا كثيراً . الذين تحفل كتابات أدبائهم بأبشع روايات التنكيل بالعبيد (كوخ العم توم مثلاً ــ جذور) والتفرقة

العنصرية (السيرة الذاتية لمارتن لوثركنج ــ روايات وليم فوكنر) هــؤلاء مــنحوا أرفع أوسمة من الكونجرس والرئاسة الأمريكية لامــرأة ســوداء مكافأة على أنها قبل ذلك بأكثر من أربعين عاما تحــدت قانون ولاية آلاباما ورفضت أن تعطى مقعدها فى حافلة الركاب لأمريكى أبيض . وهؤلاء أيضاً ، بعد أن مارسوا الاعتقال والســجن ضــد زعمــاء الأمريكيين السود (فقط بدون تعذيب أو اغتصــاب) جعلوا من عيد مولد الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج عــيداً قومياً تعطل فيه الأعمال ، وتعمدوا أن يعينوا رفيق كفاحه أنــدرو يونج سفيراً لهم فى جنوب أفريقيا التي كانت أمثولة العالم فى بشاعة التفرقة العنصرية ، وأصدروا قانوناً بمقاطعة تلك الدولة إلــى أن تثوب إلى رشدها وتسترد ضميرها ، ومما يذكر أن هذا كــان في عصر الرئيس ريجان وأنه رفض التوقيع على القانون ، وطــبقاً للدستور ، أعيد إلى الكونجرس حيث حصل على الأغلبية التى جعلته يصدر رغم أنفه القبيح .

أكبر خطأ نرتكبه هو أننا نقيس أداء المؤسسة الحاكمة فى مثل هذه الدولة بمقياس واحد وهو مدى استجابتها لمطالبنا واحتياجاتنا ، وننسى أنها ــ تلك المؤسسة ــ مسؤولة عن شعبها هى وليس عنا نحــن ، لقــد بلــغ المواطن الأمريكى أقصى ما وصل إليه النوع الإنسانى من جودة الحياة ومن الحرية ومن المعرفة ، وبدلاً من أن نســمح لسماســرة الخــراب أن يجعلونا ننام ونصحو على الحقد والغيرة فقط ، أظن أننا نحقق صالحنا أكثر عندما نجعل هذه القوة المهيمــنة على هذا العالم تتهذب أكثر مما تهذبت وتحس بقدر من الاحترام نحونا . سوف يتحقق هذا القدر من الاحترام عندما يرون المجتمع يعمل على تنوير أجياله وتبصيرها بحقائق الأمور وعندما نبدأ فى تعليم أجيالنا أن لهم شأناً ببلادهم لأنهم يملكونها . صحيح أن قــدراً كبيراً من الحرية فى إبداء الرأى على الأقل قد تحقق ــ وأظــنه أقصــى ما هو ممكن فى ظل الظروف التى اجتزناها بل

وربما يكون متجاوزاً لما هو مأمون ، ولكن خداع أجيالنا وأحفادنا بالحديث عن أمجاد الثورة ــ وعلى رأسها إرساء تكنولوجيا التعذيب ودعم الممارسات الحيوانية المصاحبة له ــ هذا لا يكسبنا احترام العالم. ولكننا درجنا على الانصياع للقيادات الآثمة الضالة، والتى تعلمنا ــ كما في إيران مثلاً ــ أن نكره كل شيء وكل بلد وأن نحقد ونغار بدلاً من أن نتصافى ونتعاون ونتعلم . كم سفارة سينسفونها وكم فرقاطة سيثقبونها وما هى نهاية كل هذا ؟ الإدمان مشكلة كبيرة عندهم ، وهم يبدأون علاج المدمن بأن يجعلوه يقف أمام الجميع ويعلن أنه مصاب بالإدمان وأنه جاء هنا لأنه يريد أن يتخلص منه . التحسن يبدأ بممارسة الصدق .

أنا لست أنادى بثورة أخرى من جانبى (واحدة كفاية !) الواقع أننى لا أنادى بشيء لأننى لست أدرى أين أذهب بإحساساتى أنا نفسى ! ولكنى أرى أننا فى حاجة إلى قدر هائل من الصدق .. مع العالم ومع أنفسنا .

ارتقاء البشر :

علينا أن نلتقط أنفاسنا وسط التيارات التى تعبث بنا كخيوط مسرح العرائس ، وندرك أن جهوداً صادقة ومخلصة قد بذلت فى سبيل إبعاد البشرية عن الصراع الدموى وتقريبها من النزاع القانونى وتحكيم النزعة الإنسانية ، من معاهدة جنيف (١٨٦٤ ثم ١٨٦٨) بشأن معاملة جرحى وأسرى الحرب ، وإعادة صياغتها بما يتفق مع أساليب القتال المستجدة سنة ١٩٠٦، والتى اعتمدتها الدنيا كلها، ثم إنشاء عصبة الأمم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، صحيح أنها عجزت كما لو كانت "جامعة" ــ عجزت عن فعل شيء فى الغزو الإيطالى الهمجى للحبشة سنة ١٩٣٥، ثم فظائع اليابان فى منشوريا والصين، والحرب الأهلية الإسبانية. ولكن العصبة كانت أساساً لنشوء الأمم المتحدة عندما انحلت سنة

١٩٤٦، جهـود صادقة كثيرة بذلت، إنشاء محكمة العدل الدولية، محادثـات نـزع السـلاح فى أوائل الستينيات، اتفاقيات الحد من الأسـلحة الاستراتيجية "سولت"، ثم جهود القوات المتحالفة وحلف الأطلنطى فى الكويت ثم البوسنة ثم كوسوفو، سوف تجد برغم هذا كلـه مـن يقول لك : أتدرى لماذا يعملون هذا ؟ ثم يشعرك بأنك مخـدوع ويأتـيك بـنظرية أو أخرى . لقد قطعت البشرية شوطاً طويلاً نحو هويتها، وانتفت أقبح شرورها وأفظع ضلالاتها بفعل تقـدم المعـرفة وتطور الفلسفة، وتهذبت طباع الناس نتيجة لرغد الحياة . ولكن أكبر الكوارث هى الزعماء والحكام الذين ــ لجهلهم ولكونهـم أقـرب إلى الضباع منهم إلى البشر ــ يريدون استعباد شعوبهم لتستمر سيطرتهم عليهم، ويرفضون كل محاولة لتعليمهم أو تـنويرهم، إذ إنـه عـندئذ سـيفقدون رواتـبهم وامتيازاتهم، والملـيارات الـتى لو أنفقوها على خير هؤلاء المظلومين لربما اكتشفوا آدميتهم الضائعة .

لقـد أصـبحت صـناعة الاستجداء فى بلادنا علماً له أصول وقواعـد ويخضـع لبحوث العمليات وحسابات الانتظار والتدفق والتقاطر. كلما رأيت "المنادى" كما يسمونه.(وذات مرة أشار إليهم الزعـيم الخالد وقال أنه يعرف أنه "بيقسم مع عسكرى البوليس")، سألت نفسى! ما الذى يعمله هذا؟ ثم: كم مليوناً أنفقت من رزق هذا الغلبان على أمور مثل محاربة الاستعمار ومساندة حركات التحرر وكسر احتكار السلاح وبيان ثلاثين مارس وأول إبريل..إلخ؟

هل هناك مَخرج ؟

عايز الدوغرى ، لأ مفيش .

الـذى قد يكون ممكناً هو "اللطف فيه" ولنتحدث فى هذا قليلاً. عـندما يذهب إلى الطبيب شخص مريض منذ أمد طويل ، رفض العـلاج وأهمل صحته وأسرف فى الطعام والشراب والمعسل ..

إلـــخ ، فإن الطبيب نادراً ما يقول له إنه لا يرى فائدة من حالته ، عـــادة يســـحب روشتة ويكتب عليها شيئاً ، خصوصاً إذا كان قد تقاضى منه أتعاباً ولا يجوز له أن يتركه يذهب لا يائساً من صحته فحسب ، بل ناقماً لضياع فلوسه أيضاً.

ونحن أضعنا الكثير جداً، سبق لى تقديره بمجمل نتاجنا القومى لمـــدة ثلاثيـــن سنة، ومن ضمنه الغطاء الذهبى لعملتنا التى ظلت عشـــرات الســـنين تســـاوى الجنيه الإسترلينى مضافاً إليه بضعة قروش .

وأنـــا طبعاً لن أتخذ وضع الطبيب، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

أنـــا مجـــرد إنسان يفكر، لست زعيماً ولا "ناشطاً" بأى درجة (كســـبنا هـــذا المصـــطلح)، الواقـــع أننى شديد البغض للزعامة السياسية، وأتمنى لو اختفى كل الزعماء وحل محلهم مديرو أعمال أذكـــياء يتحدثون عن الربحية والإنتاجية والكفاءة والفاعلية، وليس عـــن الماركســـية والأصـــولية والماويـــة والمشعارفإيهية، حتى الناصـــرية! وأنا أيضاً فى الخامسة والسبعين وليس هناك احتمال كبير أن يحدث ما أتمناه قبل أن أرحل عن دنياكم أنا أيضاً.

ويالها من دنيا !

ما الذى أتمناه ؟

أتمـــنى ـــ كما ذكرت فى إهداء هذا الكتاب لحفيدى الصغير ـــ أن أكـــون مخطـــئاً . ولذلـــك يا قارئى العزيز ، أرجو أن يكون اعتراضـــك علـــى أفكـــارى وتصـــوراتى، وليس على "شخصى الضـــعيف" كمـــا يقولـــون. فهـــو ضعيف فعلاً وحقاً ولا يستحق المهاجمـــة. أنا لست شهيراً، أعترف بذلك ، فقط قد لا يكون هذا ضـــرورياً، مـــا أكثر المشاهير الذين لا يستحقون لا الشهرة ولا غيرها .

أتمنى أن يقف حفيدى وهو فى أوائل شبابه ، علـــى كـــورنيش

النـــيل فى أى موضع ، فى أوائل أغسطس ، يتأمل المياه الحمراء وهـــى تجـــيش ، وتدور حول نفسها ، كما تقول أغنية أم كلثوم ، "الموجـــة تجـــرى ورا الموجة عايزة تطولها" ، فقط هذه موجات دورانـــية غريبة الشكل ، ولكنها تنبض بالحياة ، تحمل مصر فى طـــياتها الكثيرة ، تدور وتدور ولكنها فى زحفها الخفى إلى دمياط ورشيد ، تجرف الكثير من الشوائب ، شوائب ذكريات تثير الأسى واليأس ، كابوس صحوت منه ، لم يكن حلماً ، كان كابوساً فظيعاً وحقيقياً . والآن ، قد عاد النجاشى إلىعرشه .

عـــندما تصل الدوامات إلى البحر ، فإنها تدخل فى صراع مع أملاحـــه ، حرب يكسبها السردين الدمياطى البورسعيدى ، حفيدى سيعجبه ذلك ، لأنه هو أيضاً دمياطى بورسعيدى ــ وعلى الجانب الآخر دقهلاوى منوفى ، يحب التربة الخصبة .

ســـوف يتلفـــت حوله ليشهد الناس على روعة المنظر ، وعلى صدقه ، أنه مصر ، مصر نفسها .. ولكنه لا يكاد يجد أحداً .. أين ذهب سكان مدينة المعز لدين الله ؟! آه ، مات منهم ملايين انتهت آجـــالهم على مدى السنوات العشرين الأخيرة ، ثم ماذا ؟ لم يولد أحد .. وأصبحت شوارع المحروسة هادئة ونظيفة ، قليلة العربات وقليلة المهملات والمخاط ، وغيره من نفايات البشر والجاموس .

الـــناس أصبحوا قليلين ، فقط كأنهم ورثوا عن الذين رحلوا ــ عـــن دنـــيانا ــ كل ما كانوا يعرفونه . وهكذا فإن تلميذ المدرسة يعـــرف مـــا كان يعرفه أربعة أو خمسة تلاميذ ، والمدرس لديه عشرون تلميذاً على الأكثر ، إلى حد أنه يعرف أسماءهم .

الجامعـــات انكمشت إلى ثلاثة ، منها واحدة فى الصعيد ، إلى جانب جامعتين أجنبيتين، تتقاضيان مصروفات طائلة من أولاد الـــ .. الأغنياء، مما أدى إلى تخفيف الضغط على الجامعات الأهلية .

الشـــحاذة أصبحت هواية ، تمارس بعض الوقت فقط ، فمع قلة الـــتعداد ــ انخفض إلى أقل من ما كان عليه عندما رحل جده عن

دنيانا ، ولذلك فقد تحسنت الأجور ، ليس إلى الحد الذى كانت عليه عـندما كان جده شاباً ، فهذه أيام مضت . فقط لا بأس بشىء من التحسـن . يجعل الناس يختارون ما يريدونه ويدفعون ثمنه ، إنهم لا يتوقعون صدقة من سلطة كانت هى التى أحوجتهم إليها .

تحسـنت الـزراعة كثيراً مع تجديد التربة ، وترك المزارعين كأنمـا ولدتهم أمهاتهم أحراراً . المحكمة الدستورية قضت ببطلان قوانيـن الإفساد الزراعى ، وذكرت فى حيثياتها أن الناس أحرار فيما يملكون ما داموا لم يكسروا القانون .

التنوير أخذ أبعاداً هائلة. لم يعد معظم المصريين ينفقون الجزء الأكـبر من دخولهم على هواياتهم المألوفة : ربع طن من الشاى والقهـوة كـل يوم ، والدخان والمعسل ، وممارسة ألعاب الزواج والطلاق وكأنها عشرة طاولة . فقد أخذوا جرعة كبيرة من العوز فى العهد الفائت ، وأصبحوا الآن أكثر حرصاً على رزق الأولاد ، أو "الولدين" ، فمن مميزات لغتنا العتيدة ، أن فيها صيغة المثنى .

القـيم عـادت بدرجـة لا بأس بها ، وأصبح الناس يتعاطفون بدرجة معقولة، الشباب لديهم أمل فى الزواج ، ذات يوم . المشكلة هـى المسكن ، وإن كان رحيل الأجيال القديمة قد فتح الباب إلى مساكنهم ، التى ليست آيلة للسقوط .

يعبر واحداً من الجسور الجديدة التى بنيت على النهر فى الفترة بين الألفيتين ، عندما جرى تجديد البنية التحتية، إنشاؤها من جديد، ومعهـا الطريق الدائرى ، ومترو الأنفاق وكوبرى قناة السويس ، يتكئ على سور الكوبرى ويتأمل الدوامات مرة أخرى ، ويأخذ به العجب الذى أخذ بشوقى : "أمن السماء نزلت؟ أم فُجِّرت من عليا الجنان .. جداولاً تترقرق ؟"

المصارحة ، "جلاسنوست" ــ هذه الكلمة الروسية التى بدا بها جورباتشوف عصره الجديد والتى دخلت قواميس اللغات الأخرى ــ هى مفتاح الموقف .

أنا لا أزعم أن ما أتمناه مسألة سهلة ، أو حتى ممكنة ، كل ما أقولـه هـو أن حـل مشكلتنا لن يصبح ممكناً إلا إذا تحققت هذه الأشـياء . كيف تتحقق ؟ سؤال يستلزم حشد العقول وتعبئة شعور قومى بالكبرياء وبأن الفقر المدقع والمذلة القظيعة ، واليأس القاتل، والعـبودية التى تأتى من الحرمان ، ليست قدراً محتوماً .. لقد تم إيقـاف عربات القطار على عجلاتها ، وإصلاح القضبان ، وجئ بقاطـرة جديـدة ، وإبعاد الضباع ومظلات الذباب إلى حد كبير، ولكن المشكلة هى الركاب . لابد من "الجلاسنوست" .

من السهل أن نبنى مدرسة وقد بنى الكثير منها ، ولكن إصلاح ما يدور بداخلها ليس بهذه السهولة .

لو صدقت عزيمتنا ، كلنا ، لا مجرد قيادة أو أخرى ، لو أمكن لكـل منا أن يسترد مصر ، يسترد روحه وضميره ، سيصبح كل شىء ممكناً ، وبسهولة !

من قائمة الإصدارات

موسوعة تاريخ حضارات العالم	ترجمة: زينات الصباغ
رحلة الكلمات	د. على فهمي خشيم
تكنولوجيا الحضارات القديمة	هشام كمال عبد الحميد
عصر المسيح الدجال	هشام كمال عبد الحميد
العدل والحرية	سالم القمودى
أعلام النهضة العربية الإسلامية	صلاح زكى
حوارات الزمن الصعب	محمد همام
العلوم للجماهير	ترجمة د. عبد الحكيم بدران
رسالة إلى العقل العربى	د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
صراع الحضارات (إثبات الانا ونفي الاخر)	شعيب عبد الفتاح
عالم المعلومات الجديد	ترجمة: بهاء شاهين
العجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغنى
صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
خفايا المستقبل	محمد الحديدى
بدائل العولمة	د. سعيد اللاوندى
عبد الرحمن بدوى فيلسوف الوجودية الهارب الى الاسلام	د. سعيد اللاوندى
إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم	د. سعيد اللاوندى
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية	عبد الله المتالى
المياه فى الوطن العربى (الندرة .. التلوث)	د. عبد الحكيم بدران
العرب وإسرائيل (ميزان القوى ومستقبل ..)	د. محمد عبد الشفيع عيسى
السلام الإسرائيلى (قراءة فى المشروعات الاسرائيلية)	حسين معلوم
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل الى ...)	إكرام عبد الرحيم
مشروع للانتحار القومي ؟	مصباح قطب
السلام القاتل (سلام ضد ... من الحروب)	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
في جنازة المقاطعة العربية لاسرائيل	شفيق أحمد على
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
حماس .. حركة المقاومة الاسلامية	خالد أبو العمرين
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
أساطير التوراة	عاطف عبد الغنى
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين

سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الاختراق الاسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بديوى
اختراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق
الهجرة وتهديد الامن القومى العربى	د. عبد اللطيف محمود
دموع الجواسيس	أحمد فؤاد
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات	يوسف هلال
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم	أحمد أنور
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
محاضرات فى القانون الدولى العام	د. ميلود المهذبي
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولى	د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربى (الخروج من بيت الطاعة الامريكى)	د. السيد عوض
العلاقات الليبية - الامريكية	د. السيد عوض
الإخوان والعسكر	حيدر طه
التعريب فى الجزائر (كفاح شعب ضد الهيمنة ...)	د. عثمان سعدى
البربر الأمازيغ عرب عاربة	د. عثمان سعدى
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)	د. أحمد ثابت
إعدام صحفي	سعيد حبيب
الصحافة المشبوهة	سيد محمود
عمرو موسى (اللقاءات السرية)	شباب نصار
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح
الوحدة اليمنية	حسنين كروم
عبد الناصر والذين كانوا معه	حسين قدرى
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. والاخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم
المرأة التي احبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
ظل الرئيس (مذكرات مسعود الجبلر مدير مكتب ناصر)	عزازى على عزازى
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصري (قراءة فى ورق التنظيم الناصرى)	سيد زهران
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصرى
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري
براءة سياسية	أحمد شرف
برلنتى والمشير (القصة الحقيقية)	محمد متولى / سيد زهران

الهندسة الوراثية فى القرآن — هشام كمال
الحركة الإسلامية في مصر — صالح الورداني
الكلمة والسيف "محنة الرأى فى تاريخ المسلمين" — صالح الورداني
عيسى المسيح والتوحيد — محمد عطا الرحيم ترجمة: عادل حامد
الحكومة والسياسة في الإسلام — ترجمة: سيد حسان
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده — تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة — مجدي رياض
قيثارة السماء "الشيخ محمد رفعت" — محمود توفيق
حروب المشايخ — أحمد الدسوقي
السحر فى القرآن الكريم — سمير فراج
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور (تراث) — د. أحمد الصاوي
النقود المتداولة في مصر العثمانية — د. أحمد الصاوي
النقود الاسلامية في مصر — د. رأفت النبراوي
"Word 2000" — م. أحمد ظريف المعاني
Excel 2000 — م. أحمد ظريف المعاني
"Visual basic 6" — م. أحمد ظريف المعاني
امن وحماية البيئة — خالد القاسمي / وجيه البعيني
العلم والعمل — د. عفت عبد العزيز
الإبر الصينية في العلاج والتخدير — د. لطفي سليمان
الأعشاب الطبية — د. موسى الخطيب
طعامك طريقك الى صحتك — د. مجدي إبراهيم
تعليم الموسيقى والعزف على آلة الأورج — محمد كريم
الجنس والشباب الذكي — ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس — ترجمة زينات الصباغ
اشهر فضائح القرن العشرين — حسن صابر
أمريكا .. الانهيار السياسي والأخلاقي — حسين عبد الواحد
بنات ابليس (نساء في مملكة الشر) — حسين عبد الواحد
الامبراطورة فوزية [illegible] — سمير فراج
الانسان والمجهول [illegible] — سمير فراج
هاجس الكتابة — د. أحمد إبراهيم الفقيه
تعليقات عصر جديد — د. أحمد إبراهيم الفقيه
أثر الإسلام في الأدب الإسباني — ترجمة د. حامد أبو حمد، وآخر

عبد الله البردونى .. حياته وشعره — د. أحمد عبد الحميد
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم
مغامر حتى النهاية — إدوار الخراط وآخرون
من حديث الشعر والشعراء — د. جميل علوش
الصنعة الفنية فى التراث النقدى — د. حسن البنداري
جدلية الأداء التبادلي — د. حسن البنداري
أباطيل الفرعونية — سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية — سليمان الحكيم
رواد الأدب العربي في السعودية — شعيب عبد الفتاح
الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة — د. صلاح الراوى
إنتاج الدلالة الأدبية — د. صلاح فضل
منهج الواقعية في الإبداع الأدبي — د. صلاح فضل
تأثير الثقافة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى — د. صلاح فضل
حدود الأدب المقارن — ترجمة د. عبد الحكيم حسان
نقد وشعر وقص — د. عدنان الظاهر
بحثا عن فرعون العربى — د. على فهمى خشيم
اعلام في الأدب العالمى — على عبد الفتاح
الصولجان والقلب [illegible] — د. فاروق أوهان
محمد مندور شيخ النقاد — فؤاد قنديل
الهندسة الصوتية الايقاعية فى النص الشعرى — د. مراد مبروك
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب
السرد في مواجهة الواقع (نماذج من القصة السودانية) — محمد قطب
ابو رجل مسلوخة — محمد مستجاب
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل — ممدوح القديرى
مقالات في الحياة والأدب — ممدوح القديري
الرواية فى زمن الغضب — ممدوح القديري
الرواية العربية، رسوم وقراءات — نبيل سليمان
حديقة المتعة (تجارب سينمائية عبر العالم) — نجاح سفر
يحدث أحيانا — هبة عنايت
اشكاليات التأصيل فى المسرح العربى — هيثم يحيى الخواجة
فى الأدب العمانى — يوسف الشارونى
القصة .. تطورا وتمردا — يوسف الشارونى

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية : رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

المؤلف

ـ تخرج فى هندسة القاهرة ثم تخصص فى آليات ومعدات الإنشاء .
ـ انتقل إلى تخطيط وتنمية الموارد البشرية فى الصناعة ، ثم إلى علوم الإدارة بصفة عامة ، خبيراً استشارياً وكاتباً ومؤلفاً ومترجماً ومحاضراً ومديراً للعديد من مشروعات التطوير المؤسسى .
ـ ترجم مرجعين عالميين فى الإدارة وألف كتاباً فى إعداد التقارير فى الصناعة .
ـ أسهم بقدر وافر فى المجالات الأدبية والثقافية ، وصدرله :

مؤلفات ومترجمات فى الإدارة :

(١) كتابة التقارير فى الصناعة والأعمال ، الخبراء العرب فى الهندسة والإدارة ، ١٩٧٧ .
(٢) أفكار عظيمة فى الإدارة (عن الإنجليزية) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .
(٣) ثورة فى عالم الإدارة (عن الإنجليزية)، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٤ .

أعمال فكرية : خفايا المستقبل ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩ .

أعمال أدبية :

(١) أنشودة الغرباء (شعر) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .
(٢) الجدران (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٢ .
(٣) شبان هذه الأيام (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٣
(٤) شخص آخر فى المرآة (رواية) ، مطبوعات الجديد ، ١٩٧٥
(٥) قبل أن يهبط الظلام (رواية) ، دار الهلال ، ١٩٧٩
(٦) امرأة أخرى (رواية) كتاب اليوم ، ١٩٧٩ .
(٧) الحب رجل (رواية)، الدار القومية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١

دراسات أدبية : نماذج من الرواية العالمية ، كتاب الهلال، ١٩٧٥ .

ترجمات أدبية : ترجمة ومراجعة ومقدمة نقدية لحوالى عشرين عملاً من الدراما العالمية لسلسلة المسرح العالمى الكويتية .